

صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم

الدكتور محمود توفيق محمد سعيد

صُورَةُ الْأَمْرِ وَالْزَيْهُونِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

تأليف

الدكتور محمود توفيق محمد السمر

الأستاذ المساعد في جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جنينة ميدان شبراخيت - شبراخيت - مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين *
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأئمة .

أما بعد فإن الأمر والنهي معنيان رئيسان من معاني الذكر الحكيم ،
فهما عمود التشريع فيه ، والبيان القرآني لم يعرب عنهما في بعض سياقاته
اعراباً صريحة ، بل جاءت الأمانة عنهما في صور مختلفة باختلاف أمور
هذه : منها السياق الذي يقام فيه معنى الأمر أو معنى النهي ، ومنها حقيقة
ما يؤمر به وما ينهى عنه من معاني التشريع ، ومنها واقع من يؤمر
ومن ينهى ، وغير ذلك من القرائن والملابس ذات الأثر البالغ في اصطفاء
الصورة التي يخرج فيها معنى الأمر أو معنى النهي والوقوف على تلك
الصور سبيل إلى حسن حركة الحياة على النحو الذي يرضاه خالقها
جل جلاله .

وهذه الدراسة تعتمد إلى البحث عن تلك الصور المعربة عن معنى الأمر
أو معنى النهي وتعنى بالتدبر البياني لخصائص كل صورة وسياقاتها
ومؤثرات اصطفاؤها ومنازعه ، ولما كانت بعض الصور ليس بملكي
استقصاؤها وحصرها من أن اعرابها عن ذلك المعنى اعراب سياقي وليس
إعراباً وضعياً وما كان كذلك كان العسير استقصاءها وإدعاء الإحاطة
لا يليق ، لما كان ذلك فاني غير زاعم أن هذه الدراسة جامعة الجلي
والخفي من صور معنى الأمر وصور معنى النهي في الذكر الحكيم فلعل
صوراً أومات إلى ذلك المعنى فغفلت عنها بصيرتي لشماسة أو جهالة ،
وحسبي أني صبرت وصابرت ورابطت طويلاً فما أعانني الله - عز وعلا -
عليه بذلته ، وما طوى وإدخره لغيري فالعذر أحمد .

وهذه الدراسة متصورة على صورة الامر وصورة النهى وليست الى
تعبير المناهى الدلالية لصيغة الامر ولصيغة النهى فى الذكر الحكيم فذلك
باب فسيح جدير بأن يفرغ له بحث مستقل لعل أقوم له أو أعين من
يقوم له من أهل العلم وطلبته فانه باب فسيح ومرتقى صعب من أن
روافد فقه دلالات الامر والنهى فى الذكر الحكيم - كثيرة الإحاطة بها
والتمكن منها لا يستطيعها الا الفحول من أهل العلم .

ولما كانت هذه الدراسة عامدة الى صورة معنى الامر ومعنى النهى
اقتضى ذلك تحقيق معنى الامر ومعنى النهى فى الذكر الحكيم ونحريهما
كما أكون على بصيرة أنا والقارئ عن حقيقة المعنى الذى أسعى الى
استبصار صورته ومسالكه فى البيان القرآنى .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأئمة
والحمد لله رب العالمين

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد
الأستاذ المساعد فى جامعة الأزهر
(شيبين الكوم)

القاهرة : ١٨/٢/١٤١٣هـ
١٧/٨/١٩٩٢م

حقيقة المعنى

١ - حقيقة معنى الأمر عند العلماء :

حظيت حقيقة الأمر الاصطلاحية بكثير من القول والاختلاف بين أهل العلم ، وهم برغم من ذلك متفقون على أنه طلب فعل غير كف ، ثم أنهم يختلفون من بعد ذلك فى إطلاق هذا الطلب وتقييده بقيد يرجع الى الطالب أو الى كيفية هذا الطلب أو اليهما معا (١) .

ويمكن لنا ان نجمل اختلافهم فى أربعة مذاهب :

(الاول) يذهب أهله الى أن حقيقة « الأمر » قائمة فى الطلب القولى لفعل غير كف دونما تقييد ذلك الطلب بقيد يرجع الى علاقة الطالب بالمطلوب منه أو الى كيفية طلبه منه فكان حده عندهم :

« القول المتفتى طاعة المأمور بفعل المأمور به » (٢) .

وهم يذهبون الى أن العرب قد تسمى طلب الولد من والده أمرا ، وطلب العبد من سيده أمرا ، وإن كان ذلك غير مستحسن عندهم أبدا ، ونحن بصدد إطلاق مصطلح الأمر على حقيقة معينة : حقيقة الطلب الإيجادى للأفعال ، ولسنا بصدد الاستحسان الخلقى أو عدمه .

(١) لا التناث لنا الى اختلافهم فى جنس الطلب فى البيان أقولى أم فعلى أم يشملهما فإن جمهور أهل العلم على أن المراد هو الطلب القولى .
ينظر : أصول السرخسى ١١/١ ، شرح الممع للشرازى ١٩٢/١ .

(٢) ينسب ذلك المذهب الى الأشعرى والغزالى والجوينى والباقلانى والبيضاوى وصححه الدسوقى .

راجع فى : حاشية الدسوقى على مختصر السعد ٣٠٩/٢ (شروح التلخيص) الفوائد العيائية لكاش كبرى زاده ص ١٧٩ ، المستصمى للغزالى ٤١١/١ ، المحصول للرازى ٤٥/٢/١ ، البرهان للجوينى ١/ عبد العظيم الديب ج ١ ص ٢٠٣ (ط / قطر ١٣٩٩) شرح المنهاج للأصفهانى ٣٠٣/١ ، الأحكام للآمدى ٢٠٣/٢ .

وعمدتهم فى هذا ما حكاه ائذكر الحكيم عن « فرعون » ، بقول الحق عز وعلا : « قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم • يريد أن يخرجكم من ارضكم بسحره ، فماذا تأمرون • قالوا ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم » (الشعراء / ٣٤ - ٣٧) •

وفرعون أعلى رتبة من قومه وما هم بالمستعلن عليه (٣) •

وكذلك قول « دريد بن الصمة » يتحدث عن قومه :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشيد لا ضحى الغد
فلما عصوني كنت فيهم وقد أرى غوايتهم فى أننى غير مهنـد
وكذلك قول « الحصين بن المنذر الرقاشى » ليزيد بن المهلب :
أمير خراسان والعراق :

(٣) فى سورة الشعراء كان اسناد القول لفرعون ، بينما فى سورة الأعراف كان اسناد القول للملا « قال الملا من قوم فرعون » (الآية / ١١٠) فالقول صدر أولا من فرعون ، ثم رده الملا من بعده يقول البقاعى (ت ٨٨٥هـ) : « فكأن فرعون قال ذلك (ابتداء - كما فى سورة الشعراء - فتلقفوه منه وبادروا الى قوله ، يقوله بعضهم لبعض اعلاما بانهم على غاية الطواعية له خوفا على رئاستهم تحقيقا لقوله تعالى : « فاستخف قومه فأطاعوه » (الزخرف / ٥٤) واختير هنا (أى فى سورة الأعراف) اميناده اليهم لأن السياق للاستدلال على فسق الاكثر وأما هناك (أى فى سورة الشعراء) فالسياق لأنه أراد سبحانه أنزل آية خضعوا لها كما خضع فرعون عند رؤية ما رأى من موسى - عليه السلام - حتى رضى لنفسه بأن يخاطب عبده - على ما يزعم - بما يقتضى أن يكون لهم عليه أمر فلذا كان اسناد القول اليه أحسن لأن النصرة عن مقارعة الراس أظهر وخضوع عنقه أضخم وأكبر ، اهـ •

تفسير نظم الدرر ج ٨ ص ٢٤ ، ج ١٤ ص ٢٩ (ط / المند) •

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فأصبحت مسلوب الأمانة نادماً
فما أنا بالبأكي عليك صباباً وما أنا بالداعي لترجع سالماً
وكذلك قول « عمرو بن العاص » للخليفة « معاوية بن أبي سفيان »
في شأن أحد العلويين الخارجين على الدولة الأموية ، وقد تمثل عمرو بن
العاص بشطر بيت الحصين بن المنذر السابق .

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني وكان من التوفيق قتل ابن هاشم
اليس أبوه - يا معاوية - الذي أغار علينا يوم حز العلامم
كل من دريد والحصين وابن العاص ما كان بالأعلى على مخاطبه
ولا بالمستعلى عليه ، بل هو نظيره أو دونه ، وقد جعل كل منهم طلبه من
مخاطبه أمراً ، وسمى عدم فعل ما طلبه منه معصية ، فدل ذلك على أن
الأمر في لسان العربية غير مقيد بمنزلة الأمر من المأمور ، ولا بكيفية
أمره وأدائه ، بل العبرة أن يكون طلباً قولياً دالاً على إيجاد فعل
غير كف .

❖ في استدلال أصحاب هذا المذهب نظر :

أما الآية فإن الاستدلال بها غير ملزم ، إذ أن قوله « تأمرون » يجوز
أن يراد به تشيرون ، والمشورة لا يشترط فيها علو أو استعلاء (٤) .

والفضل من هذا عندي أن نقول : أن البيان بقوله « تأمرون » وارد
على نهج وسنة الولاة الطواغيت في مخاطبة شعوبهم حين ينزل خطب
يهز عروشهم أو حين يريدون خداعهم والتدليس عليهم في أمر يعلم أولئك
الطواغيت أنه الباطل الزهوق الذي لا يرضى رب العالمين البتة ، فيتظاهرون
بانهم يأمرون بأمر شعوبهم وينزلون على رأى قومهم وأنهم يحسنون
بنبض الشارع ويعلمون أمل الجماهير ورغبتها وأنهم يلتزمون بذلك

(٤) انظر : فتح القدير للشوكاني ٩٨/٤ ، التحرير والتنوير للطاهر

ابن عاشور ٤٣/٨ .

فيما يحكمون ويقررون ، يقولون ذلك ونسمعه صباح مساء ثم يوقعون بشعوبهم ما تسول لهم نفوسهم وشياطينهم من الأتس والجن .

وكذبوا : أفلا يسمعون ما يريد منهم خالقهم لا ما تريده منهم شعوبهم؟ أيهم أولى بالطاعة إن كانوا طائعين ؟ لكنها شنشنة كل طاغية ورثيا عن سيده وأمامه فرعون موسى . أن فرعون ما قال « فماذا تأمرون » إلا خداعا وتديسا ومثله كل طاغية لا يحكم بما أنزل الله عز وعلا ، وإن تشدق بما يتشدق .

والقرآن إنما يقص علينا أنباء « فرعون موسى ، ويحكى لنا أقواله ليصور لنا حقائق الطغاة فينا ، فهو سيدهم وامامهم ، وهم في نهجه يسدرون وبشرعته يحكمون ، ولعل هذا وجه من وجوه تكرير ذكر قصة فرعون في القرآن ، فهي أكثر القصص تكريرا وتصويرا .

أما أبيات دريد والحسين وابن العاص فالاستدلال بها أيضا غير ملزم عندى إذ أن تسمية طلبهم ممن ليس دونهم منزلة أمرا إنما هو على نيج الإبلاغ فى الدلالة على أنه كان ينبغى على المطلوب منه ذلك أن ينزل ذلك منزلة الأمر فى استحقاق الإيقاع والالتزام بالانفاذ ، وآية ذلك أن الثلاثة قد صرحوا بعقبى انتهاون فى انزال طلبهم منزلة الأمر والاستهتار فى النظر إليه على أنه مشورة وليس كالأمر .

دريد بن الصمة قال : « فلم يستبينوا الرشدا الا ضحى الفد ، فنعى عليهم بالعتبى .

والحسين قالها لمخاطبه : « فأصبحت مسلوب الامارة نادما » ولات ساعة مندم .

وابن العاص أوردها : « وكان من الترفيق قتل ابن هاشم ، فقد نعى بالعتبى على معاوية إذ لم ينزل طلبه منه منزلة الأمر فى استحقاق الانفاذ .

(الثانى) يذهب أصحابه الى تقييد حقيقة الأمر بأن يكون الأمر أعلى منزلة من المأمور فى نفس انسان والواقع سواء كان وجه العلو فى هذا

معتبراً عند الله عزوعلا ، كما هو الحال التقى على الجاهل والحاكم العادل على قومه ، فان لكل حق الطاعة في المعروف ، أو كان الله معتبراً عند الناس كملوا التقى على الفقير والحسيب على غيره ، فالأمر عندهم : « استدعاء الفعل بانقول ممن هو دونه » (٥) .

وهم اذ يشترطون علو الطالب على المطلوب منه في الواقع انما ينظرون الى « أن الاستدعاء من النظر ، ومن هو أعلى منه لا يسمى أمراً على الحقيقة ، وان كانت صيغته صيغة الأمر ، وانما يسمى طلباً ومسألة وان استعمل فيه لفظ الأمر فعلى سبيل المجاز » (٦) .

وليس يخفى أن قول أحدنا الله رب العالمين : «اهدنا الصراط المستقيم» لا يستطيع عاقل أن يسميه أمراً ، وكذلك قول ذلك الصحابي للنبي صلى الله عليه وسلم :

« يا رسول الله علمني كلمات أعيش بهن ، ولا تكثر علي ، فأنسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تغضب » (٧) .

(٥) يذكر القاضي عبد الوهاب المالكي أن هذا المذهب منقول عن أهل اللغة وجمهور أهل العلم ، وينسب الى جمهور المعتزلة وبعض أهل السنة :

راجع في حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٢/٢٠٩ ، الفوائد الغيانية ١٧٩/١٧٩ ، شرح المنصل لابن يعش ٧/٥٨ ، المغنى لعبد الجبار ١٧/١٠٧ ، المحصول ١/٢/٤٥ ، شرح اللمع للشيرازي ١/١٩١ ، الفصول في الأصول للجصاص ٢/٧٧ ، كشف الأسرار على اليزدوى للعلاء البخاري ١/١٠١ ، العدة لأبي يعلى الفراء (ت/ أحمد المنباركي) ١/١٥٧ ط / الرسالة بيروت سنة ١٤٠٠هـ) .

(٦) شرح اللمع للشيرازي ١/١٩٢ .

(٧) الموطأ للإمام مالك : ما جاء في الغضب - حديث رقم ١٧٤٥

(شرح الزرقاني ج ٤/٢٥٨ - ٢٥٩) .

وكل ما كان على تلك الشاكلة لا يقال انه أمر ، وان كانت صيغته موضوعة للأمر .

(الثالث) يذهب أهله الى تقييد حقيقة الامر بقيد هيئة الأمر وأدائه بأن يصدر الطلب من صاحبه على هيئة الاستعلاء أى من غير تذلل أو خضوع ، وذلك بأن يعد الطالب نفسه عالياً على المطلوب منه سواء كان كذلك عالياً فى نفسه أم مستعلياً ، المهم أن يظهر -نالة العلو - « يكون كلامه على جهة الغلظة والقوة لا على جهة التواضع والانخفاض » (٨) ومن ثم جعلوا حد حقيقته فى أنه « طلب فعل غير كاف بالمعول على جهة الاستعلاء » (٩) .

هذا المذهب يخالف الذى قبله فى أن ذاك يشترط علو الأمر فى حقيقته وان كان أداء الطلب على غير هيئة الاستعلاء ، وهذا ينظر الى صورة الأداء لا الى منزلة الأمر .

وقد اعترض على اشتراط الاستعلاء والنظر الى صورة أداء الطلب بأن الكتاب العزيز فيه ما هو فى غاية التلطف ونهاية الاستجلاب بتذكير النعم والوعيد بالنقم ، كما فى قوله تعالى :

« اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » (البقرة / ٢١)
وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى » (آل عمران / ٣١) الى غير

(٨) مواهب الفتح للمقربى ٤٠٩/٢ (شروح التلخيص) .

(٩) يقول بها جمهور البلاغيين وجمهور الأحناف والرازي ، وابن الحاجب والأمدى وأبو الحسين البصرى .

راجع فى المطول ص ٢٣٩ ، الطراز للعلوى ٢٨١/٣ - ٣٨٢ ،
الدسوقي على المختصر ٣٠٩/٢ والمصباح لابن الناظم ص ٩٠ (ت/ حسنى
يوسف / طبعة (١) سنة ١٤٠٩ ، السيد على الكشاف ٦٧/١ ، الفوائد
الفيانية / ١٧٩ ، المحصول للرازي ٢٢/٢/١ ، المعتمد لآبى الحسين
البصرى ٤٣/١ ، التلويح للسعد ٢٨٨/١ .

ذلك من الآيات المنافية لاشتراط الاستعلاء ، والا لزم أصحاب هذا المذهب اخراج مثل ذلك عن كونه أمرا ، بل يلزمهم أن يخرجوا كل صيغة أمر لا يدل دليل على وجود الاستعلاء الذي هو هيئة قائمة بالأمر وأكثر الأوامر لا يوجد فيها ذلك (١٠) .

دفع هذا الاعتراض « الصنعاني » بأن أوامر الله عز وجل كلها صادرة عن العلو رتبة بلا ريب ، وعن الاستعلاء ، فانه الحق بذلك الا أنه لا يقال في تفسيره : عد نفسه عاليا واعتقدهما كذلك ، بل بمعنى أنه أهل لذلك الاستحقاق ، وأما قرنه أوامره بتذكيره نعمه فليس لانه لا علو ولا استعلاء بل ذكر ذلك عقب الأمر من باب الاستدلال على وجوب طاعته وامتنال أمره ، وليس من باب التلطف في العبارة ، بل الأمر وقع بلفظ « افعلوا » (١١) ثم أتبعه بدليل يزيدهم بعثا على طاعته وإبانه لمنافع ما أمر به ، (١٢) فذلك من فيض الربوبية الشاملة للعالمين ، فأمرو عباده بما يحب منهم مقرون بما يبعثهم على القيام به ان استمعوا .

(الرابع) يذهب أصحابه الى تقييد حقيقة الأمر بالقيدين معا : العلو والاستعلاء ، فهو عندهم : استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه على سبيل الاستعلاء (١٣) .

(١٠) الابهاج في شرح المنهاج للتعلي السبكي وولده التاج ٧/٢ - ٨

(١١) يريد صيغة (افعلوا) .

(١٢) اجابة السائل شرح بغية الأمل للصنعاني ٢٧٧/١ (ت/

السباعي ، والأهدل) .

(١٣) ينسب هذا الى القاضي عبد الوهاب المالكي ولابي نصر بن القشيري النيسابوري راجعه في حاشية الدسوقي على مختصر السعد ٣٠٩/٢ (شروح التلخيص) شرح الكوكب المنير لابن النجار ١٢/٣ ، نهاية السؤل للأسنوى ٨/٢ .

فإذا كان الطالب من الأعلى على سبيل الإرشاد لا يكون أمرا حقيقة وأن
كان ممن هو الأدنى أو النظير لا يكون كذلك أمرا .

وغير خفى أن اشتراط علو الطالب وحده كما هو المذهب الثاني
انما هو اشتراط أمر خارج عن صيغة الأمر وصورته وبناء الأسلوب نفسه
بل هو أمر راجع الى من يصدر عنه البيان والنظم وحاله رافد من روافد
فقه دلالة هذا النظم ، وهذا يدخل فى حقيقة الامر ما لا الزام فيه كالأمر
الإرشادى وما شاكله . فالأمر عندهم قائم على دعائتين : الطالب اتقوى
لايجاد فعل غير كف ، وأن يكون طالبا عاليا فى نفسه ايا كانت هيئة
طلبه ذلك من المطلوب منه ، فدائرة حقيقة معنى الامر عندهم فسيحة .

واشتراط استعلاء الطالب وحده دون اشتراط علوه ، كما هو
المذهب الثالث انما هو أخذ بأمر راجع الى صفة الكلام وهيئته دونما
نظر الى واقع منشئه ومن يصدر عنه ذلك الطلب وعلاقته بالمطوب منه .
والأخذ بحال الكلام وأداء النظم أقرب الى الإدراك من الأخذ بحال المتكلم
اذ أن حال الكلام قرينة مشهودة بينما حال المتكلم قرينة حالية قد لا تشاهد
ولا تنقل ، وما كان مشهودا أقرب ادراكا وأسرع استحضارا ، وبناء
المعنى لا يعتمد على واحد منهما من دون الآخر وأن اختلفا قريبا وبعدا فى
الإدراك والاستحضار .

والإكتفاء بطلب العلو (الاستعلاء) دون اشتراط تحقق العلو فى
الواقع يخرج من حقيقة الامر ما كان طالبا على غير صرة العظمة ، وهذا
المذهب يؤول فى بيان الكتاب وأسننه الى المذهب الرابع المستلزم العلو
والاستعلاء معا ، لأن الاستعلاء المشروط فى المذهب الثالث يقتضى به علو
الأمر ضرورة أن الأمر فى بيان الكتاب انما هو الله عز وعلا ، وفى البيان
النبوى انما هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فالأخذ بالعلو والاستعلاء
معا - كما هو المذهب الرابع - انما هو الآنس بحقيقة الأمر فى كل من
البيان اقرآنى والبيان النبوى . بينما المذهب الثالث المشروط استعلاء
لا علوا هو الآنس بحقيقة الأمر فى بيان غيرهما ، اذ استعلاء فيه لا يقتضى
علو الأمر ضرورة .

وعلى ذلك فحقيقة معنى الأمر فى غير البيان القرآنى والنبوى هى :
القول الطالب صاحبه استعلاء ايجاد فعل ممكن مراد غير «حاصل رقت
طلبه على الحال التى طلب عليها فعلا غير كف مدلول عليه بأفعل ونحوه»
وحقيقته فى بيان الوحي (القول الطالب ايجاد فعل ممكن مراد غير
حاصل وقت طلبه على الحال التى طلب عليها ، مدلول عليه بأفعل
ونحوه) :

وغير خفى أننى جعلت المطلوب ممكنا لاخرج ما كان للمتعبين ونحوه
فليس من معنى الأمر فى شيء ، وجعلته مرادا لاخرج أيضا ما كان غير
مراد كما فى قوله تعالى « أعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير »
(فصلت / ٤٠) وشرطت أن يكون غير حاصل وقت الطلب لأن ما كان
حاصلا وأريد الثبات عليه دون زيادة وترق ، كالأمر بفعل حاصل لايقبل
الزيادة فهو حينئذ أمر بالثبات عليه ، فهو فى قوة قولك أثبت عليه ،
وزدت على هذا قولى (على الحال التى طلب عليها) لأدخل فى حقيقة معنى
الأمر الأمر بفعل حاصل وقت الطلب وهو من الأفعال التى تقبل الزيادة
والارتقاء كالإيمان والتقوى والعلم .. الخ فمثل هذه الأفعال لا متبقى
لمقاماتها ومدارجها ، فإذا أمر من هو متبلس بها فهو أمر بها فى مستوى
أعلى وأرقى ، فقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : « اتبع ما يوحى
إليك من ربك لا اله الا هو وأعرض عن المشركين » (الأنعام / ١٠٦)
وقوله « يا أيها النبي اتق الله » (الأحزاب / ١) ونحو ذلك إنما هو داخل
فى حقيقة الأمر لأنه ليس أمرا بالثبات على الاتباع وبالإعراض عن
المشركين ويتقوى الله . فذلك كائن - لا ريب - ولن ينقطع المنة من انه
المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ولكنه أمر بالارتقاء فى مقامات تلك الأفعال
ومدارجها ، فانها لا تتناهى .

وجعلت الفعل مدلولاً عليه بصيغة أفعل ونحوها ، ليدخل فيه طلب
الكف بما دل عليه بمادته ونحوها كقولنا كف عن كذا ، ودع وذر ،
لا بما دل عليه بصيغته كقولنا لا تفعل ، وليدخل فيه ما دل عليه التركيب

فى سياق دون سياق كافادة بعض التراكييب الخيرية أو الاستفهامية معنى الأمر ، فقولى ونحوها يشمل ما دل بصيغته الانفرادية أو التركيبية السياقية .

وإذا ما كنت قد أدخلت تلك القيود الكاشفة الضابطة فى صياغة حقيقة معنى الأمر ، فإن الشروط والقيود المحققة المحررة حقائق المصانى مما يقتضيها الحد والتعريف ، ذلك أن « الغرض من الاءد الاشعار بالحقيقة التى بها قيام المسئول عن حده وبه تميزه الذاتى عما عداه » (١٤) وكل ما دل على ماهية الشئ هو ضرورة فى تعريف ذلك الشئ ، فذكر تلك القيود ضرورة .

ولم أذكر قيد العلو والاستعلاء فى بيان حقيقة معنى الأمر فى الذكر الحكيم لأنها متحققان ضرورة وما كان كذلك لا ينص عليه .
٢ - حقيقة معنى النهى عند العلماء :

الذى عليه جمهور أهل العلم أن « النهى ، كالأمر فى حقيقة معناه إلا أن « الأمر ، طلب إيجاد فعل غير كف وأن « النهى ، طلب كف عن إيجاد فعل ، وهم أيضا على أن فى « النهى » المذهب التى هى فى حقيقة معنى الأمر :

منهم من جعل حقيقته القول المقتضى طاعة المنهى من نهاء بالكف عما نهاه عنه . ويرد على هذا المذهب ما ورد على المذهب الأول من الأمر .

ومنهم من اشترط استعلاء الناهى ، فجعل حقيقة معناه : القول الدال على طلب الامتناع من الفعل استعلاء .

ومنهم من جمع بين اشتراط علو الناهى واستعلائه (١٥) .

(١٤) البرهان للجوينى ت/ مهيد العظيم الديب ١١٩/١ (ط/ قطر)
(١٥) راجع : المطول للسعد ٢٤١/١ ، الأطول ٢٤٩/١ ، شروح التلخيص ٢/٣٣٤ ، المصباح لابن الناعلم ص ٩١ ، المعتمد لآبى الحسين البصرى ١/١٦٨ ، شرح اللمع ١/٢٩١ ، البرهان للجوينى ١/٢٨٣ ، العدة لآبى يعلى ١/١٥٩ ، كشف الأسرار للبخارى ١/٢٥٦ ، التلويح ١/٤١٤ ، فواتح الرحموت ١/١٦٨ ، شرح مختصر ابن الحاجب للعضد ٢/٩٥ .

وكل ذلك مثله ما في المذاهب السابقة في حقيقة معنى الأمر مما
يعنى ذكره هناك عن ذكره هنا ، وكذلك الذى نصطفيه هنا هو كالتى
اصطفيناه هناك سواء فى بيان الوحى أم فى غيره ، فحقيقته فى بيان
الوحى :

القول الطالب كفا ممكن مرادا عن فعل ممكن مدلول على ذلك بصيغة
لا تفعل ونحوها .

وحقيقته فى غير بيان الوحى : القول الطالب استعمال الكف الممكن
المراد عن فعل ممكن . . . الخ .

وغير خفى فرق ما بين الحقيقتين ، فى الأول علو الطالب واستعلاؤه
ضرورة فلم تنص عليهما فى التعريف ، وفى الثانى العلو غير مطلوب
والاستعلاء ليس ضرورة عقلية فكان النص عليه فى التعريف ضرورة .
وجلى انى زدت هنا وصف الكف بالامكان مثلما وصفت الفعل المراد
الكف عنه بالامكان ، لأنه اذا نهى عن فعل لا يمكن الكف عنه فليس ذلك
بنهى حقيقة ، فثم أفعال ليس بملك المرء أن يكف عنها ، وهى التى
لا دخل له فيها ، وكذلك أن نهى فعل لا يمكن وقوعه منه ، فإن العبارة
حينئذ ليست نهيا حقيقة لأنه انما ينهى عما يمكن فعله ويدخل فى ذلك
النهى الموجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أفعال هو معصوم منها ،
كالشرك بالله ، وكما فى قوله تعالى : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل
الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار » (ابراهيم / ٤٩)
اذا ما قلنا ان الخطاب فى الآية للنبي صلى الله عليه وسلم . المهم أنه
لا يدخل فى حقيقة النهى ما لن يكون من المخاطب عجزا أو عصمة .

ويخرج من حقيقة النهى ما كانت الصيغة فيه لغير طلب الكف كالتى
تكون للتسخير أو التفخيم .

ويدخل فى حقيقته طلب الكف عن فعل واقع عند الطلب أو سبفعل
من المخاطب حقيقة أو احتمالا .

فى ضوء ما مضى باننا لنا حقيقة معنى النهى مثلما باننا حقيقة معنى
الأمر من قبل .

صورة المعنى

لمعنى الأمر والنهى فى العربية عامة وفى البيان القرآنى خاصة صور عديدة بعضها دال على ذلك المعنى صراحة عند تجرده من القرائن الصارفة عنه الى غيره من المعانى ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الصورة الوضعية للمعنى أو الصورة الصريحة . وبعضها دال على ذلك المعنى تلويناً بمعونة السياق والقرائن ، وهو ما يمكن أن نسميه الصورة غير الصريحة .

الصور الوضعية الصريحة محدودة شأن التراكيب الوضعية بنمطها الأخرى غير محدودة وغير متفق عليها ، فتعديدها وتحفيظها يرجع الى لقائية المتدبر والباحث المنقب .

الفرب الأول : الصيغة

١ - صيغة الأمر : وهى على نوعين كليين :

* ما دل على معنى الأمر بأداة خارجية مقترنة بالفعل المطلوب إيجاده
* ما دل عليه بصيغة الفعل المطلوب نفسه أو ما يقوم مقامه من غير أداة خارجية .

(النوع الأول) : ما دل على معنى الأمر بأداة خارجية مقترنة بصيغة الفعل المطلوب ، وهو المضارع المقترن بلام الجزم المكسورة (ليفعل) وما شاكلها ، كما فى قوله تعالى :

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم .
فليتقوا الله ، وليقولوا قولاً سديداً » (النساء / ٩) .

ففى الآية ثلاثة أوامر جاءت بصيغة (ليفعل) : (وليخش ، فليتقوا وليقولوا) جعل سبيل الوقاية للذرية الضعيفة مما يخاف عليها من العاديات ثلاثة : خشية الله عز وعلا وتقواه والقول السديد . . . ثلاثية تشكل سياج الأمن والطمأنينة البائنة على كيان الذرية وجرداً وسعادة وهذه الثلاثية : البعد عما حرم الله ، واتقاء الاقتراب مما حرم بتركه بعض

ما لا بأس كما عني حقيقة التقوى (١) وسداد القول ، هذه الثلاثية عني التي ينفر منها الوجولون على ذرياتهم من عادات الغيب . فإذا التهب والسلب والسرقة والكذب والفجور هي السبيل الذي انتهجوا .

العلماء مختلفون في بيان عناصر صيغة الأمر في (لتفعل) أمي عنصر واحد هو المضارع نفسه واللام قرينة ، أم هي من المضارع واللام معا (٢) وتحقيق هذا عائد على النظر في الدلالة حين تحذف لام الأمر ، أياكون حذفاً لقرينة مقالية أم حذفاً لعنصر من عناصر الصيغة .

الحذفان في لسان العربية سائنان شائعان بل قد تعدف الصيغة كلها كما تراه في حذف أداة الاستفهام والنداء مثلاً .

واقتران « لام » الأمر بالمضارع متفاوت في الكثرة والفلة :

❖❖ يجب اقترانها به إذا ما كان مبنياً للمفعول متكلاً كان مرفوعه أو مخاطباً أو غائباً .

❖❖ ويكثر اقترانها به إذا ما كان مبنياً للفاعل ومرفوعه غائباً ، كما في قول الله عز وعلا :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، (النساء / ٧٦) .

❖❖ ويقل اقترانها إذا ما كان المضارع مبنياً للفاعل ومرفوعه مكتملاً كما في قوله تعالى :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ، (العنكبوت / ١٢) فاللام في (لنحمل) لام أمر أريد به الخبر بدلالة

(١) عن عطية السعدي وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من اثنين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس » ابن ماجة : كتاب الزهد - باب الورع والتقوى ١٤٠٩/٢ حديث رقم / ٤٢١٥ .

(٢) معاجم الفتح المغربي ٢/ ٣١١ .

تكذيبهم بعده (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء ألهم لكاتبون)
وانما عدل عن الخبر الى الأمر لأن صيغة الأمر باللام أوجب وأشد تأكيداً
فى نفس السامع ففيها من المبالغة فى الالتزام ما فيها على نحو ما نراه
من المبالغة فى صيغة التعجب كما فى قولك (أحسن به) (٣) .

فهذا الأمر فى تأويل الشرط والجزاء أى ان تتبعوا سبيلنا يحمل
خطاياكم ، ونما كان أسلوب الشرط اخباراً فيه مظنة الخلف وكان الأمر
انشاء فيه استدعاء الامتثال كان العدول الى الأمر أكد فى الدلالة على
ايقاع الحمل . وذلك فيه بيان وهدى وكشف نهج المضللين المفسدين فى
الأرض : يعمدون أبداً الى سلوك طريق الخديعة والتأثير الساحر على
الآخرين ، وكم من طاغية فىنا يوسوس الى بطانته أن يعبثوا فى الأرض
فساداً وفقاً لما يريد الطاغية منهم ، وأنه يحمل عنهم تبعات ذلك كله
إذا ما زلقت أقدامهم وافتضح أمرهم .

انه الواقع الجائم على حياتنا حكاة القرآن الكريم لنا من قبل وهذا
شأن القصص القرآن يحكى ما كان ليهدى الى انتى هى أقوم فيما سيكون
أو هو كائن فىنا فمن النصح اللالزب فى تدبر قصص القرآن رؤية حركة
الحياة الشاخصة فى مرآة هديه « هذا بيان للناس وهدى وموعظة
للمتقين » (آل عمران / ١٣٨) .

*** وأقل من الصورة الآتفة دخول لام على المضارع اذا ما كان
مرفوعه مخاطباً ، وذلك كما فى قراءة « يعقوب » برواية « نويس »
قوله تعالى :

« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون »
(يوسف / ٥٨) .

(٣) التبيان فى اعراب القرآن للعكبرى ١٨٢/٢ ، مائتة القرآن المفرد
٣١٤/٢ ، المحرر الوجيز لابن عطية تحقيق المجلس العلمى بمكناسى المغرب
ج ٢٠٦/١٢ (١٤١٨هـ) .

حيث قرأ بآلتاء كلا من قوله (تفرحون) وقوله (تجمعون) وهي قراءة عشرية متواترة (٤) وهي « أدل على الأمر بالفرح وأشدّ تصرّحاً به ايذاناً بأن الفرج بفضل الله ورحمته مما ينبغي التوصية مسافة به » (٥) .
ولام الأمر شديدة الاتصال بما تدخل عليه حتى أضحت كحرف من حروف المضارع ، فعولمت معاملته فلدحها التسكين اذا وليت واو العطف أو فاء ، كما في قوله تعالى :

« وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » (الحج / ٢٩) كما في قراءة غير ابن عامر باسكان اللام (٦) .

وعلى الرغم من شدة اتصال هذه اللام بالمضارع فقد جاء في لسان العربية حذفها مع بقاء عملها ودلالاتها .

وقد جعلها « البصريون » كذلك في الشعر خاصة ، يقول سيبويه :
« واعلم أن هذه اللام قد يجوز حذفها في الشعر وتعمل مضمرة كأنهم شبهوها بأن اذا أعلموا مضمرة » (٧) .

وقد جاء ذلك في غير قليل من الأشعار التي استشهد بها النحاة (٨) ولكن « الكسائي » يذهب الى حذفها وبقاء عملها ودلالاتها في الاختيار بعد فعل قول دل على الأمر (٩) كما في قوله تعالى :

(٤) المبسوط في القرآن العشر لابن مهران ص ٢٠٠ ، المحرر أبو جيز لابن عطية ٥٧/٩ .

(٥) عناية القاضى للشهاب الخفاجى ٤١/٥ (ط / دار صادر - بيروت)

(٦) المبسوط لابن مهران ص ٢٥٧ ، رصف المبانى للمالقي ص ٣٠٣ .

(٧) الكتاب لسيبويه ٨/٣ (ت / هارون - ط سنة ١٤٠٣ بيروت)

(٨) لسابق ٨/٣ - ٩ ، شرح المفصل لابن يعيش ٣٥/٧ ، ٦٠ ، والمغنى

لابن هشام ١٨٦/١ ، الأصول في النحو لابن السراج ١٥٧/٢ ، شرح

شواهد المغنى للمسيوطي ٥٩٧/٢ - ٦٠٠ .

(٩) عمدة القوامع للمسيوطي ٥٥/٢ .

- « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة » (إبراهيم / ٣١) .
- وقوله : « قل للمؤمنين يغضوا » (النور / ٣٠) .
- وقوله : « وقل للمؤمنات يغضضن » (النور / ٣١) .
- وقوله : « قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » (الأحزاب / ٥٩) .
- وقوله : « قل للمؤمنين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » (الجاثية / ١٤) .
- المضارع فى الآيات السابقة انما هو مقول (قل) وهو على تقدير « لام » الامر فهى أفعال مجزومة بلام الامر المحذوفة ، فالذى صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يأمرهم بتلك الأفعال .
- وذهب « ابن مالك » الى جواز حذف « لام » الامر مع بقاء تحملها ودلالاتها ، وان لم يكن قد تقدم قول فيه أمر ، مستدلا على ذلك بقول الراجز :

قلت لبواب لديه دارها

تيدن ، فانى حموها وجارها

فليس الراجز فى هذا مضطرا فانه يمكن أن يقول « ايدن » على وزن « افعل » (١٠) .

وقال « أبو حيان » وليس لقائل أن يقول هذا من تسكين المرفوع اضطرارا ، فانه لو قصد الرفع لتوصل اليه باستغنائه عن الفاء (١١) .

والاعلى فى فقه جزم المضارع فى الآيات السابقة انها فى جواب الامر (قل) (١٢) وفى هذا اعراب عن أن هذه الأفعال واقعة من أصحابها عقيب

(١٠) همع الهوامع للسيوطى ٥٦/٢ .

(١١) شرح شواهد المغنى للسيوطى ٦٠٠/٢ - ٦٠١ .

(١٢) حاشية الدسوقي على السعد ٣٢٨/٢ (شروح التلخيص)

التبيان فى اعراب القرآن للعكبرى ٦٨/٢ - ٦٩ ، معاني القرآن

للغراء ٧٧/٢ .

القول لهم لا تتخلف عن القول ، فيم ليسوا في حاجة إلا الى مجرد القول لهم ، وفي هذا اعلاء لهم وثناء عليهم وحض لهم وحث على سرعة الالتزام وصدقه .

إذا ما نظرنا في الآيات الآتفة ألفينا أن الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم انما هم من طائفة خاصة : (عبادي ، المؤمنين ، المؤمنات ، أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وبناته ونساء المؤمنين ، الذين آمنوا) هؤلاء جميعا أهل لأن يكونوا في ذلك المحل المأرب عن أن من هو قائم فيه ان قيل له أفعول كذا فعل ما قيل له وامثل وأوقع المأمور به على نحو ما أمر به وفور الأمر به ، ولذا تلحظ أن مقول القول (قل) لم يذكر في الآيات استغناء عن ذكره بذكر جواب الأمر اعرابا عن انهما سواء وأن ما يوقعونه هو عين ما يؤمرون به .

كذلك نلاحظ أن الافعال التي جاءت مجزومة في جواب الأمر في الآيات السابقة انما هي من جلائل الأعمال التي بها قوام حياة الأمة على الجادة والتهاون في شيء منها اما أن يكون فيه خرق علامة بالله اخلاق عز وعلا واما فيه ما يفسد حركة الحياة واستقامتها .

طبيعة ما يؤمر به وواقع من يؤمر بهما يقضيان اصطفا تلك الصورة التي اخرج فيها معنى الأمر فأعربت عنه ، وفي هذا وقت ما سبق رسم للمنهج الاسمي في انتربية المزوجة بالثناء الملهب للعزائم ، المعرض على التسليم والامثال .

وليس من هذا الضرب قوله تعالى :

« ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » (الحجر / ٣)

المضارع « يأكلوا » وما بعده ليس جوابا للأمر « ذرهم » لأن الأكل لا يترتب وقوعه على تركهم فانهم يأكلون تركوا أم لم يتركوا ، فبز من باب حذف لام الأمر على صبيال التهكم والتواعد بدلالة « فسوف يعلمون » وهذا المعنى ليس مما يقوم هذا البحث له .

وكان يمكن « ابن مالك » أن يستدل بهذه الآية على حذف لام الأمر دون أن يسبق بقول أمر كما شرط « الكسائي » فليس بأمر قولي قوله « ذرهم » .

ويذهب « الكوفيون » الى أن صيغة « ليفعل » وما شاكلها من المضارع المقترن به « لام » الأمر الجازم إنما هي أصل صيغ الأمر إذ الأمر معنى من المعاني وشأنها أن تفاد بالحروف ، كما في الاستفهام والنفي والنهي والتعني وقد أبى « البصريون » ذلك ودفعوه (١٣) .

وقد تميزت اللام للأمر في الذكر الحكيم على قراءة حفص في تسعة وسبعين موضعاً بتكرار بعض الأفعال ، ومن خلال النظر فيما جاء منه في ضوء سياقه بدا لي أن أغلب هذه الصورة كان دالاً على معنى الأمر المقتضى إيقاع ما لم يكن . وإن ما كانت الصورة فيه لغير الدلالة الطلبية (حقيقة معنى الأمر) قليل (١٤) .

(١٣) الانصاف في مسائل الخلاف : ج ٢ ص ٥٢٤ (المسألة ٧٢)
 (١٤) من هذا قوله تعالى : « فادعوهم فليستجيبوا لكم » (الأعراف / ١٩٤) وقوله : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » (التوبة / ٨٢) وقوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (الكهف / ٢٩) وقوله : « فليمدد له الرحمن مداً » (مريم / ٧٥) وقوله « فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر . . . » (الحج / ١٥) وقوله : « فليرتقوا في الأسباب » (ص / ١٠) وقوله : « هذا فليذوقه حميم وغساق » (ص / ٥٧) وقوله « وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم » (غافر / ٢٦) وقوله : « فليدع ناديه » (العلق / ١٧) .

فهذه الصور لا تعرب عن معنى الأمر فبعضها للتعجيز أو التسوية أو التهديد أو الاخبار أو الإهانة . . . الخ .

وقد جاءت « اللام » فى مواقع من الذكر الحكيم فاحتمل أن تكون « لام أمر » وأن تكون لغيرها (١٥) من قوله تعالى :

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » (البقرة / ١٨٥) .
ذهب بعض أهل العلم (١٦) الى أن اللام فى قوله « ولتكملوا » وما بعدها لام أمر ، ففى الآية أمر بصيام الشهر وإكمال العدة والتكبير .

والجمهور على خلاف ذلك فهى تحتل أن تكون زائدة فيكون قوله « ولتكملوا » معطوفاً على « اليسر » أى يريد بكم اليسر ولأن تكملوا فهى كالتى فى قوله « ولكن يريد ليطهركم » (المائدة / ٦) (١٧) .

وتحتل أن تكون لام كى ، فاما أن تكون الواو عاطفة لها على علة مقدرة أى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ليسهل عليكم ولتكملوا العدة فحذف المعطوف عليه وهو كثير فى كلامهم كما يقول ابن الأنبارى (١٨) واما أن يكون قوله (لتكملوا) علة لمحذوف أى شرع تلك الأحكام لتكملوا ويكون قوله (لتكملوا) علة الأمر بمراعاة العدد ، وقوله (لتكبروا) علة الأمر بالقضاء والخروج من عهدة الفطر وقوله (ولعلكم تشكرون) علة الترخيص ، وهو نوع من اللف لطيف المسلك ، وهذا ما عليه أكثر المفسرين (١٩) وهو الأعلى لاتساق النظم عليه وإحكامه .

(١٥) دراسات لأسلوب القرآن للشيخ عزيمة ق ١ ج ٢ ص ٥٠٧

(١٦) البحر المحيط ٤٣/٢ ، فتح القدير للشوكانى ١٨٣/١ .

(١٧) التبيان فى أعراب القرآن للعكبرى ٨٢/١ ، التحرير والتنوير

١٧٥/٢ .

(١٨) التبيان فى غريب أعراب القرآن لابن الأنبارى ١٤٥/١ ، والتبيان

للعكبرى ٨٢/١ .

(١٩) الكشف ٣٣٦/١ - ٣٣٧ ، إرشاد العقل السليم لأبى السعود

٢٠٠/١ ، روح المعانى للأوسى ٦٢/٢ ، فتح القدير للشوكانى ١٨٣/١

الفتوحات الإلهية ١٤٧/١ .

ومما احتمل أن تكون اللام فيه للأمر وأن تكون لغيره قوله تعالى :
 « وكذلك تصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون »
 (الأنعام / ١٠٥) .

استظهر أبو حيان أن تكون اللام في (ليقولوا) لام الأمر ، ويؤيد ذلك القراءة بسكون « اللام » ، وإن المعنى عليه متجه كأنه قيل ومثل ذلك تصرف الآيات وليقولوا هم ما يقولون . . . فانه لا يحفل بهم ولا تلتفت إلى قولهم وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث بهم (٢٠) فهو خارج عن حقيقة معنى الأمر الذي حققناه من قبل ، وهو مع ذلك ضعيف .
 فإن اللام من بعدها في (ولنبينه) لام كي (٢١) فخير من ذلك أن تكون « اللام » لام العاقبة عطف على علة محذوفة أي مثل ذلك التصريف تصرف الآيات لنلزمهم الحجة أو ليحجدوا وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون وغير خفي ، إن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل للتبيين شبه به فسبق مساقه (٢٢) فشبه ترتب قولهم على التصريف بترتب العلة العائية واستعير لهذا المعنى الحرف الموضوع للعلة على وجه الاستعارة النبية كما يقول الطاهر بن عاشور (٢٣) ومن العلماء من لم يفرق بين اللام في (ليقولوا) واللام في (لنبينه) فجعلهما معا لام العلة حقيقة ، لأن نزول الآيات وتصريفها يكون لأمرين مرادين أضاليل الأشقياء وهداية السعداء « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » (البقرة / ٢٦) (٢٤) والقول بأنها في (ليقولوا) لام العلة أعلى فيه دلالة

(٢٠) البحر المحيط ١٩٨ / ٤ .

(٢١) عناية القاضى ١١٠ / ٤ ، ارشاد العقل السليم ١٧٠ / ٤ ، روح

المعاني ٢٤٩ / ٧ .

(٢٢) الكشف ٤٢ / ٢ .

(٢٣) التحرير والتنوير ٤٢٢ / ٧ .

(٢٤) التبيان للمكبرى ٢٥٦ / ١ ، عناية القاضى للشهاب ١١٠ / ٤ .

على عظيم جهالة وضلال الكافرين فان من تبصر هذا التصريف وحال
التنبى صلى الله عليه وسلم يعصمه من الزعم بأنه درس ذلك وتعلمه على
أحد من البشر فان ذلك مما لا يكون بالتعلم .

ومما قيل فيه باحتمال اللام أن تكون للأمر وأن تكون لغیره قوله تعالى
« وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا
ربنا ليضلوا عن سبيلك ٠٠٠ » (يونس / ٨٨) .

فاللام فيه لام صيغة الأمر المراد به الدعاء « كقولنا ربنا اطمس
واشدد ، وذلك لما عرض عليهم آيات الله وبياناته عرضا مكررا ٠٠٠
ورأهم لا يزيدون على عرض الآيات الا كفرا ٠٠٠ ولم يبق له مطمع فيهم
وعلم بالتجربة وطول الصحبة انه لا يجيء منهم الا الذى والضلال ٠٠٠
أو علم ذلك بوحي من الله ٠٠٠ اشتد غضبه عليهم ٠٠٠ فدعا الله عليهم
بما علم أنه لا يكون غيره » (٢٥) .

والم يرتضى « ابن المنير » القول بأنه دعاء بلفظ الأمر فقال : ان
اللام هنا للتعليل فان موسى عليه السلام يخبر بأن الله أمرهم مما أمدهم
استدراجا ليزدادوا اثما وضلالة ولكن الزمخشري يذهب الى استعانة
ذلك على الله لاعتقاده أن من الجور أن يملأ لهم فى الضلالة ويعاقبهم
عليها فذلك من اعتزاله الخفى (٢٦) وقد قال به من أعمن السنة جماعة (٢٧)

وقيل ان اللام للعلة « ونقل ذلك عن نحاة البصرة : الخابل وسيبويه
والأخفش وأصحابهما ، ٠٠٠ فاللام موضوعة للتعليل مستعارة لمعنى
الترتب والتعقيب الموضوع له فاء التعقيب على طريقة الاستعارة التبعية

(٢٥) الكشف ٢ / ٢٥٠ .

(٢٦) الانصاف لابن المنير ٢ / ٢٥٠ (هامش الكشف) .

(٢٧) انظر البحر المحيط ٥ / ١٨٦ ، غناية التاضى ٥ / ٥٥ ارشاد المقل

السليم ٤ / ١٧٢ ، روح المعانى ١١ / ١٧٢ .

فى متعلق معنى الحرف ، فثبته ترتب الشيء على شيء آخر ليس علة فيه بترتيب المعلول على انعلة للمبانغة فى قوة الترتب حتى صار كأنه مقصود لمن ظهر عنده أثره ، فالمعنى انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فضلوا بذلك وأضلوا» (٢٨) وفى انلام آراء أخرى ضعيفة (٢٩) فاللام على القول بأنها للأمر ليست من الأمر الذى حققنا معناه من قبل .

ومما قيل فيه بذلك قوله تعالى :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة » (ابراهيم / ٣٧) .

فالأظهر أن اللام فى (ليقيموا) متعلق بقوله (أسكنت) وهى للتعليل ايماء الى أن الغرض من اسكانهم بواد غير ذى زرع نما هو إقامة الصلاة والتفرغ لها (٣٠) .

وذهب آخرون الى أن اللام للدعاء أى الأمر المراد به الدعاء لهم باقامة الصلاة (٣١) وهو خارج عن معنى الأمر الذى حققناه .

وكذلك قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر أولوا الالباب » (ابراهيم / ٥٢) .

فان اللام فى (لينذروا) و (ليعلموا) و (ليذكر) لام التعليل وهو اما معطوف أى لينصحوهم ولينذروهم (٣٢) فهو متعلق ببلاغ ، واما أنه متعلق بمحذوف هو المعطوف تقديره ولينذروهم به انزل أو تلى (٣٣) .

(٢٨) التحرير والتنوير ٢٦٨/١١ .

(٢٩) البحر المحيط ١٨٦/٥ ، التحرير والتنوير ٢١٨/١١ .

(٣٠) الكشف ٣٨٠/٢ ، البيان فى غريب اعراب القرن لابن

الانبارى ٦٠/٢ .

(٣١) البحر المحيط ٤٣٢/٥ ، تفسير البيضاوى ٢٧٣/٥ (ومعه

عناية القاضى) .

(٣٢) الكشف ٣٨٥/٢ ، التبيان للمكبرى ٧١/٢ .

(٣٣) التبيان للمكبرى ٧١/٢ ، البيان لابن الانبارى ٦٣/٢ .

ويحتمل أن تكون اللام للأمر ولكن يعكر عليه عطف قوله (وليذكر) وهو منصوب ولكن أبا حيان ذهب الى أن ذلك لا يخدمه إذ يكون وليذكر ليس معدوفاً على الأمر بل يضم له فعل يتعلق به (٣٤) وغير خفى أن في ذلك تبتيراً للنظم وليس من ورائه لطيفة يستعذب ، بل أن في جعل « اللام » فى المواضع الثلاثة للتعليل لطفاً فانه معرب عن أن هذا الإبراز للناس أقيم لانذارهم واعلامهم انما الهمم اله واحد وتذكير أوفى الاناب بما هو عظيم لا يذكره غيرهم ، فتلك فوائد ثلاث لهذا البلاغ هى الغاية والحكمة فى انزال الكتب تكميل بانذار واستكمال القوة الفطرية بالعلم واستصلاح القوة العملية بالتذكر (٣٥) .

ومن هذا قوله تعالى :

« وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم فاتوا أساطير الأولين * ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون » (النحل / ٢٤ - ٢٥) .

اللام فى قوله (ليحملوا) تحتمل أن تكون لام العلة أو لام الأمر على الأول المعنى ان عاقبة قولهم أساطير الأولين حملهم أوزارهم كاملة ومن أوزار من ضلّوهم بقولهم هذا ، فالحمل ليس غرضاً للمقول وان كان القول مسبباً فيه (٣٦) فان فرقاً بين ما هو غرض وما هو سبب .

والثانى أن اللام للأمر على معنى الحتم عليهم والصغار الموجب لهم (٣٨) فهو خارج عن معنى الأمر الذى حققناه أيضاً ، والأول أعلى فان فيه دلالة بالغة التحذير من مقالة الضلال فانها عقبى السوء .

(٣٤) البحر المحيط ٤٤١/٥ .

(٣٥) أنوار التنزيل للبيضاوى ومعه حاشية الشهاب ٢٨٠/٥ .

(٣٦) الكشف ٤٠٦/٢ ، التبيان للعكبرى ٧٩/٢ .

(٣٨) البحر المحيط ٤٨٤/٥ ، عناية لقاضى للشهاب ٣٢٥/٥ .

وفى السورة نفسها قوله تعالى :

« وما يكمن من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فآليه تجأرون ﴿٥٣﴾ ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم يريهم يشركون ﴿٥٤﴾ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (النحل / ٥٣ - ٥٥) .

اللام فى (ليكفروا) تحتل أن تكون لام العلة أو لام الأمر : والكفر هنا كفر النعمة بدلالة ما تعلق به (بما آتيناهم) وعبر خبر أن كفران النعمة ليس غرضاً وباعثاً على الاشرار « فان اشراكهم سابق على ذلك وقد استصحبوه عقب كشف الضر عنهم ولكن شبهت معارضة عودهم الى الذرك بعد كشف انصر عنهم بمقارنة العلة ، لبساعة على عمل لذلك العمل ، ووجه الشبه مبادرتهم لكفر النعمة دوى ، تريث ، فاستعير لهذه المقارنة لام التعليل ، وهى استعادة تبعية تلميحية نهكبة (٣٩) .

وجوز الزمخشري أن تكون « انلام » للأمر الوارد فى معنى الخذلان والتخلية (٤٠) فهو ايضا خارج عن معنى الأمر الذى حققناه .

ومما احتمل أن تكون لامة لام أمر وان تكون غيرها قوله تعالى :

« فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون » (العنكبوت / ٦٥ - ٦٦) .

فى قوله (ليكفروا) وجهان الاول أنها لام كى واستنظيره أبو حيان والمعنى أنهم اذا ركبوا فى الفلك وخافوا العرق وانقطع رجاؤهم دعوا

(٣٩) التحرير والتنوير ١٧٩/١٤ ، وانظر الكشاف ٤١٤/٢ . البحر المحيط ٤٠٢/٥ وتفسير البيضاوى وحاشية الشهاب ٣٤٠/٥ ، نظم الدرر للبقاعى ١٨٠/١١ ، ١٨١ .

(٤٠) الكشاف ٤١٤/٢ ، وانظر البحر المحيط ٤٠٢/٥ .

الله وحده مخلصين له الدين فلما استجاب لهم ونجاهم الى ابر فاجنوا
المعاودة الى الشرك لتأصله فيهم فكفروا بنعمة الله ، فكفران النعمة «مسبب
عن الاشراك لانهم لما بادروا الى شئون الاشراك فقد احدثوا بكفرون
النعمة فاللام استعارة تبعية شبه المسبب بالعلة الباعثة فاستعير له
حرف التعليل عوضا عن فاء التفرع» (٤١) .

والآخر انها لام الامر والامر هنا للتهديد والوعيد فهو كقوله (اعملوا
ما شئتم) (فصلت) (٤٢) ويكون الوقف حينئذ على (يشركون) وقوله
(ليكفروا) استفتاح آية وجملة مما . اما على انها لام كي فالوقف على
(آتيناهم) اذا كانت اللام في (ليتمتعوا) للامر وسوف ياتي

والقول بان اللام في (ليكفروا) فيه اعراب عن عظيم التهديد والغضب
عليهم وابانة عن أن النكوص على العقبين من بعد الهدى واتخاذ المخادعة
نهجا ومقابلة النعمة والاحسان بالكفران والاساءة انما هو الخسران المبين
والختم الأعظم على القلوب .

ويؤيد القول بان اللام هنا لام امر تهديدي قراءة ابن كثير ونافع برواية
قالون وعاصم برواية الأعشى والبرجمي عن أبي بكر وحزمة والكسائي
وخلف (وليتمتعوا) بسكون اللام (٤٣) فان التسكين دليل على أنها ليست
لام كي في (ليتمتعوا) لأن التسكين « لا يجوز في لام كي ، وانما كان
ذلك لأن لام كي حذف بعدها أن بخلاف لام الأمر ، فلا يجوز أن تحذف
حركتها لمكان الحذف» (٤٤) .

وعلى ذلك يكون قوله (ليتمتعوا) معطوفا على (ليكفروا) اذا
ما كانت اللام في كليهما لام كي أو لام الأمر ، فان جعلت اللام في

(٤١) التحرير والتنوير ٣٣/٢١ ، الكشف ٣/٢١٢ ، البحر المحيط

١٥٩/٧ .

(٤٢) الكشف ٣/٢١٢ .

(٤٣) الميسر في القراءات العشر لابن بدران ص ٢٩١ .

(٤٤) البيان لابن الأنباري ٢/٢٤٧ .

(ليكفروا) لام كى وفى (ليتمتعوا) لام الأمر ولا سيما عند تسكينها ، فان (ليتمتعوا) لا يكون معطوفا على (ليكفروا) بل يكون معطوفا على جملة « فلما نجاهم الى البر » (٤٥) وهو من عطف جملة اشائية لفظا خبرية معنى على أخرى خبرية لفظا ومعنى وذلك أن الأمر التهديدى اخبار ، أو تكون الواو فى (وليتمتعوا) عاطفة كلاما على كلام لا عاطفة فعل على فعل (٤٦) وقراءة ابن مسعود (فتمتعوا فسوف تعلمون) بالتاء فيهما أى قيل لهم تمتعوا فسوف تعلمون ، وكذا فى مسح أبى ابن كعب (٤٧) تؤيد أن اللام فى (ليتمتعوا) لام أمر أو نفس وجها من وجوه دلالتها ان قلنا انها قراءة تفسيرية وقراءة ابن مسعود تجعل آية سورة العنكبوت « كآية سورة « الروم » قال تعالى :

« واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون » (الروم / ٣٣ - ٣٤) .

فالقول فى (ليكفروا) هنا كالقول فيه فى سورة العنكبوت من احتمال أن تكون « اللام » لام كى أو لام أمر وهو أمر تهديد كالذى فى قوله (تمتعوا) (٤٨) .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

« والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستبشروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا

(٤٥) التحرير والتنوير ٣٣/٢١ .

(٤٦) البحر المحيط ١٥٩/٧ .

(٤٧) الموضع السابق .

(٤٨) ينظر : الكشف ٢٢٢/٣ ، التبيان للعكبرى ١٨٦/٢ ، البحر

المحيط ١٧٣/٧ ارشاد العقل السليم ٦٠/٧ ، روح المعاني ٤٢/٢١ ،

الفتوحات الإلهية ٣٩٣/٣ ، التحرير والتنوير ٩٨/١١ .

مبجحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، (الزخرف / ١٢ - ١٣)
 اللام فى (لتستورا) تحتل أن تكون لام (كى) وأن تكون لام أمر
 أستظهر بعض أهل العلم أن اللام (لام كى) فالاستواء علة حمل
 ما يركبون من الفلك والانعام ، ومن بيانه لما الموصولة فى
 (ما يركبون) (٤٩) ويذهب « ابن عطية » الى أن اللام (لام أمر) ويكون
 الوقف على قوله ما تركبون . وبدأ الجملة قوله (لتستورا) واستبعده
 « أبو حيان » « من حيث استعمال أمر المخاطب بقاء الخطاب ، وهو من
 القلة بحيث ينبغي أن لا يقاس عليه ، فالفصيح المستعمل (اضرب)
 وقيل ، (لتضرب) بل نص النحويون على أنها لغة رديئة قليلة اذ لا تكاد
 تحفظ الا قراءة شاذة (فبذلك فلتفرحوا) « الخ » (٥٠) فهو دفع له
 لمخالفته معهود اللغة كما يزعم « أبو حيان » الا أن دعواه ان قراءة
 « فلتفرحوا » بالتاء قراءة شاذة دعوى غير صحيحة ، وانها قراءة متواترة
 قرأ بها يعقوب بن اسحاق فى رواية رويس محمد بن المنوكل ، وزيد بن
 أحمد بن اسحاق (ابن أخى يعقوب) وهى قراءة عشرية (٥١) فالحكم
 عليها بالشذوذ غير قويم ، وأبو حيان نفسه لم يحكم عليها بالشذوذ فى
 سورة (يونس) بل ذكر أنها قراءة سيدنا عثمان وأبى بن كعب رانس ،
 وقراءة الحسن وأبو رجاء وابن هرمز وابن سيرين وأبى جعفر المدني
 والسلمى وقتادة والجدرى وهلال بن يساف والأعمش وعمرو بن فائد
 والعباس بن فضال الانصارى ورويت عن النبى صلى الله عليه وسلم (٥٢)
 فكيف تكون من بعد ذلك شاذة الا ان ذهب الى أن غير السبعة شاذ ،
 وذلك غير قويم .

(٤٩) البحر المحيط ٧/٨ ، روح المعانى ٦٧/٢٥ ، الفتوحات

الالهية ٧٨/٤ .

(٥٠) البحر المحيط ٧/٨ .

(٥١) المبسوط لابن مهران ص ٢٠٠ .

(٥٢) البحر المحيط ١٧٢/٥ .

فان قلنا بان اللام فيها لام أمر ، فليس موجب الامر الايجاب او النذب بل هو للامتنان ، فان في الاستواء معنى التمكن والاطمئنان ومعنى تسخير ما استوى عليه ، ويكرن قوله « تذكروا » و « تقولوا » معطوفا عليه دالا على المعنى ، فكدنه قيل لتستوا ولتذكروا ولتقولوا .

وهو اذا ما كان الفعلان (تذكروا) و « تقولوا » امرين فالمعنى فيهما لغير الامتنان فان من السنة المؤكدة ذكر النعمة والتسبيح عند الاستواء على ما يركب ، ولا بعد في عطف أمر حقيقي على أمر مفيد الامتنان .

فان كانت « اللام » في « لتستوا » لام (كى) فان في قوله « تذكروا » و « تقولوا » معنى الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ابلاغاً في طلب الذكر والتسبيح .

مما مضى تبين لنا ان ما جاءت فيه « اللام » محتملة ان تكون لام الأمر وأن تكون غيرها كان الغالب فيها حين توجه على انها لام أمر ان يكون الامر على غير حقيقة معناه انتهى حقةناها من قبل ، وما جاء عليه قليل كما في آية (البقرة / ١٨٥) و (ابراهيم / ٥٢) و (الزخرف / ١٣)

(النوع الثاني) ما دل على معنى الأمر بصيغة الفعل المطلوب أو اسمه او ما ناب عنه دون اقتران بأداة خارجية من أدوات المعاني .

ويندرج تحت هذا ثلاث صور :

(الأولى) ما يصلح أن يطلب به الفعل من الفاعل المخاطب بحذف حرف المضارعة عند بعض أهل العلم ، وهو صيغة (أفعل) بكسر الهمزة وسكون الناء وما شاكلها ، وهذه الصيغة هي الأكثر استعمالاً في لسان العربية ، وهي لأمر افعال المخاطب .

وجمهور أهل العلم على أن هذه الصيغة قائمة بنفسها غير متولدة من صيغة أخرى ، بينما يذهب « الكوفيون » الى أن هذه الصيغة (أفعل) أصلها (لتفعل) « الا أنهم لما كثر استعمال الأمر للمواجهة في كلامهم ، وجرى على السنتهم أكثر من الغالب استغنوا مجيء « اللام » فيه مع

كثرة الاستعمال ، فحذفوها مع حرف المضارعة طلبا للتنقيف « (٥٣) »
وقد دفع « البصريون » ذلك ونقضوه (٥٤) .

ما يفوله « الكوفيون » بحث في طراز صيغة معنى الأمر ، ويسمى 'لى
جعل صيغ الأمر الصريح متولدة من صيغة واحدة تشابكت من عنصرين : لام
جازمة مكسورة ومضارع فيتولد معنى الطلب من تقاءهما ، فاللام وحدها
لا تدل عليه ، والمضارع يادونها غير موضوع له ، إذ هو موضوع لتقييمه
الحدث بالزمان المحصل ، وكونه أمرا أو خبرا خارج عن مقصوده (٥٥) .
واستغناء صيغة (افعِل) عن اللام شبيه باستغناء أسماء الاستفهام ،
وهل عن اقترانها بهمزة الاستفهام .

يقول « سيبويه » في الهمزة : « انها حرف الاستفهام انذى لا يزول
عنه الى غيره ، وليس للاستفهام فى الاصل غيره ، وانما تركوا الألف فى
(من) و (متى) و (هل) ، ونحوهن حيث أمنوا الالتباس » (٥٦) .

ومذهب « الكوفيين » فى هذا قد يكون غير بعيد إذا ما علمنا أن القول
بتطور بعض الصيغ ذات الدلالات المتقاربة والدائرة فى فلك واحد أمر
ليس بالغريب فى العربية ، بل أن من علمائها من له شغف بالابحار فى
تاريخ الصيغ ومحاولة الوقوف على الصورة الأولى التى كانت عليها
وما أصابها من تحول قد يقتضيه كثرة الاستعمال أو يقتضيه استشراق
الى أفق دلالى أسمى و « سيبويه » أشار الى أن من سنة العرب فى البيان
أن تعتمد الى كلمتين مشتقتين من أصل واحد والمعنى العام فيهما واحد
ويحتلون البناء مختلفا ، ليكون أحد البناءين مختصا به شئ ، دون الآخر ،

(٥٣) الانصاف فى مسائل الخلاف لأبن الأنبارى ٥٢٨/٢ .

(٥٤) السابق ٢٥٤/٢ ، معنى اللبيب ١٨٩/٦ ، رجعت أنبارى ص ٣٠٣ .

(٥٥) معنى اللبيب ١٨٩/١ .

(٥٦) الكوفيين ص ٦٩/١ ، سارون ص ١٥٠/٢ .

ليفرق بينهما على نحو ما نراه في العدل والعدل ، اذ العدل ما عاد لك من الناس ، والعدل لا يكون الا للمتع ، ولكنهم فرقوا بين الماعين ليفصلوا بين المتاع وغيره وكذلك بناء حصين وامرأة حصان ، وحجر رزين وامرأة رزان ، وهذا أكثر من أن يوصف في كلام العرب: (٥٧) .

فاذا كان اختلاف البناء هنا بين صنوين دالا على اختلاف في المعنى السياقي دون أن يجعل كل بناء منهما أصلا برأسه فالخطب في (افعل) و (لتفعل) أهون ، اذ الحذف والتضمين في العربية سائغ وشائع ، ولا سيما حذف أداة ذات دلالة مختصة بها كهمزة الاستفهام ، ويقويه بقاء عملها معربا عن ملاحظتها دلالة ، كما يذهب اليه « الكرفيون » في لام الأمر وحذفها من صيغة (افعل) .

القول يتطور صيغة (لتفعل) الى (افعل) وشيوع الصورة الجديدة وقلة استعمال الأصل قول له وجه ولا سيما أن ثبه ملاحظة أثر كثرة الاستعمال على تشكيل الصيغة على نحو جديد .

واذا ما كانت كثرة الاستعمال والحضور الأدائي في لسان الأمة ذا تأثير في تشكيل صورة المعنى على نحو آخر ، فإن من وراء ذلك تأثيرا آخر في طاقات هذه الصورة في تشكيلها الجديد ، وفي هذا اثر للمعجم الدلالي لاستعمال الصيغة وتمهيد مساقات جديدة ندرج عليها تلك الصورة وازدادة عظيمة الى تصوير المعنى .

واذا ما نظرنا الى الواقع الحضوري في الذكر الحكيم لصيغة (لتفعل) وصيغة (افعل) فإن الأولى كما سبق ذكره من قبل قد بدغمت تسعا وسبعين مرة بتكرار بعض الأفعال ، والصورة الثانية (افعل) وما شاكلها وافرة في الذكر الحكيم فلم تخل سورة من سورته من أولها الى آخر سورة النازعات .

وقد خلت ثمانى عشرة سورة من قصاص السور من هذه الصيغة (أفعل) وهى سورة : عبس ، والتكوير ، والانفطار ، والانشقاق ، والبلد ، والشمس ، والليل ، والتين ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والعاديات ، والفارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والاعون ، والمسد .

وإذا تأملنا صورة الأمر (لتفعل) وصورته (افعل) ألفينا أن دلالة (لتفعل) على حقيقة معنى الأمر التى سبق بيانها أكثر من دلالتها على غيرها . بينما دلالة (افعل) على غير حقيقة معنى الأمر كثيرة جداً بل متنوعة الدلالة وفى هذا ما قد يعرب عن أن صيغة (لتفعل) لما كانت هى الأصل فى الوضع الأول وأقل استعمالاً كانت أليط بحقيقة معنى الأمر بينما صيغة (أفعل) أقدر على أن تتسع لدلالات عديدة على لاجب مساقات متباينة ، فكان فقه الدلالة البيانية لصيغة (أفعل) أصعب مراساً وأدعى إلى طول مراجعة ونفاذ بصيرة فى أغوار السياق الثقالي والثقافى ، فإن هذه المعانى السياقية لتلك الصيغة كثيراً ما تتداخل أو يستدعى بعضها بعضاً مما يدخل المرء فى اشكالية أنواع بدقائق الوجوه الدلالية للصيغة .

(الثانية) اسم فعل الأمر :

اسم الفعل اسم يتوب عن الفعل معنى وعملاً دون تأثر بعوامل الفعل وسواء كان مدلوله لفعل أو معنى كما هو مذهب جمهور السحاذ أو معنى الفعل كما هو ظاهر كلام سيبويه ومذهب الكوفيين (٥٨) فإن العرب قد وضعته فـ ، بابين من أبواب الفعل : باب الأمر وباب الخبر ، وأكثر

(٥٨) ينظر خلاف ، أهل العام فى هذه المسألة فى : شرح المنهاج لابن يعيش ٢٥/٢ ، ٢٩ ، ص ١٠٥/٢ ، ص ١٠٥ ، شرح الكافية للرضى ٦٧/٢ ، الأشمونى وحاشية النيسابانى ١٩٤/٣ ، ١٩٥ ، شرح ابن عقيل وحاشية الذهري ٨٩/٢ .

ما تكون أسماء الانفعال في باب الأمر (٥٩) .
 ووجه ذلك أن الأمر لا يكون إلا بفعل فلما قويت الدلالة فيه على الفعل
 حسنت إقامة غير الفعل مقامه ، وليس كذلك الخبر ، لأنه لا يخص
 بالفعل (٦٠) وإقامة اسم الفعل مقام فعل الأمر أنس به دلالة من أن اسم
 الفعل يجمع في دلالاته ثلاثة وجوه .

١ - المبالغة : أي الإبلاغ في الدلالة على معنى الفعل الذي ناب منابه
 فإن قولك (صه) أبلغ في الدلالة على طلب السكوت من قولك (أسكت)
 فانت تقوله في حال تأكيد تحقيق وقوع السكوت ممن تطلبه منه وأنه
 مما لا ترخص في تحقيقه أو تراخي في الاستجابة له .

ومن المجهود في لغة العرب أنه إذا أريد بالفعل المبالغة في معناه
 أخرج عن مجهود لفظه ، فيكون في العدول اللفظي أعراب عن المبالغة في
 معناه (٦١) .

والإبلاغ في الدلالة عام في اسم الفعل سواء كان أمراً أو خبراً . بل
 قد يحمل مع الإبلاغ معنى التعجب في اسم الفعل الخبري كما هو في
 اسم الفعل (هيهات) فليس معناه (بعد) أو (بعد جداً) بل معناه
 ما أبعد ، وكأنه قد بلغ في البعد حداً أثار عجب المتكلم فصور ذلك
 وأبرزه في قوله هيهات ولذلك فسر ابن جنى بقوله : بعد بعده (٦٢) على
 غرار جد جده ، وهو ما تراه باديها فيما حكاه القرآن الكريم عن الكافرين
 « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون » هيهات
 هيهات لما توعدون » (المؤمنون / ٣٥ - ٣٦) .

(٥٩) المقتصد لعبد القاهر ٦٥٩/١ ، المقرب لابن عصفور ص ١٤٦ ،
 الهمع ١٠٥/٢ ، الأصول لابن السراج ١٤١/١ ، الفوائد الضيائية
 للجامي ١١٢/٢ .

(٦٠) الخصائص لابن جنى ٣٧/٣ .

(٦١) السابق ٤٦/٣ .

(٦٢) الخصائص لابن جنى ٤٣/٣ ، شرح الكافية المرفوعة ٦٨/٢ .

ففيه اعراب عما استقر في قلوبهم من استحالة الوقوع وبعده بعدا لا يتأتى تصويره . وفى هذا مناداة على مبلغ ما انتهى اليه الضلال فيهم وما أخذ العمى من بصائرهم ، فكان أقرب الحقائق الى تصور العقل ابعدا عندهم عنه .

٢ - الایجاز : فان من خصائص اسم الفعل أن يلزم صورة واحدة وإن اختلف معموله نوعا وعددا فالفرد وغيره سواء والمذكر وغيره سواء وليس الفعل على تلك الشاكلة ، فلزوم صورة واحدة فيه من الایجاز ما لا يخفى (٦٣) .

أضف الى ذلك أن اسم الفعل انما هو رمز جامع لمعاني كلمات كثيرة ، فيقوم بتصوير ما يقوم به اسم الفعل وحده ، فقولك (دونك زيد) ليس معناه : « خذ زيدا » سواء بسواء بل هو قائم مقام قولك : دونك زيد فخذ ففقد أمكنك ، ففيه دلالة على القرب والتكبر وطلب الاخذ ، فمقام (خذ) غير مقام (دونك) فكان فى اسم الفعل اختصار آخر يرمى به الى « حصول الفراغ منه بسرعة ليتبادر المأمور الى الامتنان قبل أن يتواعد عنه زيد » (٦٤) .

واسم الفعل أيضا قد يفيد بالتنوين معنى لا يكون معه بغير تنوين فقولك (صه) بدون تنوين غيره قولك (صه) بالتنوين ، فان نفي تنوينه طلاقة الدلالة حيث انك تطلب سكوتا عن أى حديث ، وذلك بخلاف (صه) بدون التنوين ، فهو طلب سكوت عن حديث معلوم (٦٥) ومثل هذه الطاقات الدلالية الكامنة فى اسم الفعل لا تكون فى الفعل نفسه نحر (اسكت) .

(٦٣) الخصائص لابن جنى ٤٧/٣ ، شرح المفصل لابن يعيش ٢٥/٤

(٦٤) شرح الكافية للرضى ٦٨/٢ .

(٦٥) شرح المفصل لابن يعيش ٢٨/٤ ، ٣٢ .

اسم الفعل يجمع الى الابلاغ في الدلالة الایجاز في العبارة ، وذلك
أنيق بفعل الأمر من الخبر ، إذ الأمر يعسج حذفه من غير خلف عنه
لشاهد حال أو إشارة ، كما أنك فاعله في أسلوب التحذير والاعراء مثلا
فكان قيام اسم الفعل مقام الأمر أولى وأكثر (٦٦) .

وجمهور أهل العلم على أن أسماء الفعل تلزم مصورة واحدة ، إذ
الضمير مستكن فيها لا يبرز ، فتبقى صورتها مع المنى والجمع هي
صورتها مع المفرد ، وصورتها مع المذكر هي صورتها مع المؤنث . فما كان
كذلك التفت كلمة أهل العلم على أنه اسم فعل ، وما كان غير ذلك ودل
على معنى الفعل فالجمهور على أنه فعل وليس باسم فعل وإن عد بعض
أهل العلم ما لم يازم صورة واحدة من اسم الفعل لشدة شبهة بالفعل
الذي جاء على صورة واحدة دالا على طلب الفعل في القرآن الكريم :

دلم (٦٧) هيت ، هاؤم ، عليكم ، مكانكم .

فهذه الخمس تحمل ضميرا مستترا في محل رفع ، وما يبدو من
ضمير في (عليكم) و (مكانكم) إنما هو في محل جر كما عليه الجمهور ،
بل ذهب « ابن بابشاذ » الى أنه حرف خطاب لا ضمير ، فلا محل له من
الاعراب (٦٨) .

١ ، جاء قوله (هلم) في موضعين من القرآن :

(١) « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا ، فان
شهدوا فلا تشهد معهم ، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين
لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » (الأنعام / ١٥٠) .

(٦٦) شرح المفصل لابن يعيش ٢٩/٤ .

(٦٧) الجبازيون يجعلونها اسم فعل فلا يبرز الضمير والضميمون
يجعلونها فعل أمر فيصلون بها الضمائر (مع الهوامع ١٠٧/٢)
ولم تأت قراءة عشرية على لغة تميم فكأنها على لغة الجباز .
(٦٨) مع الهوامع ١٠٦/٢ .

فى سياق سورة الانعام اننا نزاله دفعة واحدة كما عليه جمهور اهل العلم ، وقد نصبت الى اثبات وحدانية الله ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مما يقتضى ابطال مذاهب الملحدين والمشركين وشبهاتهم وتلك هى القضية الرئيسة فيما تنزل به الوحي فى العهد المكي .

وفى ثانيا اقامة الدلائل الباهرة على الوجدانية وانبوة ودحض شبهاتهم عليهما اتى على افتراءاتهم ومزاعمهم فيما هو من خصائص الله الواحد من التحليل والتحريم ، اذ جعلوا لله مما ذرا من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائهم ، فما عينوه لشركائهم لا يصرفونه الى ما موله فى زعمهم وما عينوه لله تعالى صرفوه لأنهم المزعومة ، ثم اتى على ما قاموا به من حجر بعض أنعامهم وتحريم شهور بعضها ، وجعل ما فى بطون بعضها خالصة لذكورهم محرمه على أزواجهم وحرموا ما رزقهم الله افتراء عليه ، فبين لهم ما أحل الله لهم وما حرم عليهم ، وتوعدهم على الافتراء على الله كذبا ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخبارهم أنه لا يجد مما حرّموا شيئا محرما فيما أوحى إليه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أو فسادا اهل لغير الله به ، وبين لهم ما حرم على اليهود ببغيهم وتوعدهم وأبطل زعمهم أنه لو شاء الله ما أشركوا ولا حرّموا شيئا مما حرّموا ، فبكتهم وتحداهم ان يكون عندهم من علم ، فيخرجوه ، بل هو الباطل والكذب والله وحده الحجة البالغة .

فى هذا المساق تحداهم أن يأتوا بمن يشهد لهم أن الله حرم ما زعموا أنه محرم . ولما كان السياق يقتضى الابلاغ فى دعوتهم احضار من يشهد لهم بذلك صرف البيان عنه بفعل الأمر اليهود (احضروا) الى اسم فعله (هلم) ليكون بما فيه من البلاغ فى الدعوة والتحدى والتبكيت وتبيان زيفهم وعجزهم وبهتانهم أنسا بالسياق وتناسقا مع ما أقيم له من دحض افتراءاتهم . فاسم الفعل (هلم) لا يحمل طلب احضار الشهود ، بأن الله حرم ما زعموه حراما فحسب بل هو يجمع اليه لابلغ فى هذا الطلب واعلان التحدى والمواجهة والتبكيت على أقدامهم على ما لا يقدم عليه عاقل

من الافتراء على الله ، وذلك كله هو الآنس بالسباق العام للسورة والسباق الخاص لهذه الآية ولا يستطيع فعل الأمر القيام بالاعراب عنه على النحو الذى أعرب عنه اسم فعل الأمر (هلم) .

وجاءت المواجهة بالاشهاد على ما زعموا فى مقام التحليل والتحريم بطلبها باسم فعل الأمر (هلم شهداءكم) مناظرة المواجهة بالاشهاد فى مقام الوجدانية « قل لمن مافى السموات والأرض قل لله ٠٠٠ » (الآيات) الى قوله « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير * وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير » (الأنعام / ١٧ - ١٨) فطلب المواجهة بالاشهاد باسم استنهام « قل أى شئ أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى الى هذا القرآن لاندركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد بل انما هو الله واحد واننى برىء مما تشركون ، ، وثان: الابلاغ فى طلب المواجهة بالاشهاد فى مقام لتشريع، لأن الافتراء فيه أوسع مدى والواجون فيه أكثر ، بل ان بعضا ممن يعتصمون من الافتراء فى مقام الألوعية والوجدانية فيقرون بهما لله رب العالمين ليقترحمون الافتراء على الله فى مقام التحليل والتحريم ، وتكاد طائفة من هذه الأمة تنازع الله عز وعلا فى ذلك فتعطى نفسها ذلك الحق الالهى ، فكان الابلاغ فى طلب المواجهة بالاشهاد فى مقام التشريع الآتى من (اسم الفعل) آنس بالسباق من فعل الأمر .

(ب) وجاء (هلم) مرة أخرى فى سورة الأحزاب :
« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم انينا ولا باتون اليأس الا قليلا » (الأحزاب / ١٨) .

جاءت هذه الآية فى مساق سورة الأحزاب ، واذا ما تبصرنا فى انساب مدانى هذه السورة ألفينا أن آياتها انما يجمعها أصل تماثلت منه وتدور فى فلكه :

انه معنى التشريف للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ذو رافدين :

* تشريف بدا فى صورة دفع عنه وذبح عن حرمانه وعن دعوته وأمنه .

* وتشريف بدا فى تبيان خصوصياته وما فضل به .

وجاءت هذه الآية فى مساق : الرافد الأول جاء الاعراب عن موقف المنافقين اذ جاءت الأحزاب من فوق المدينة ومن أسفل واذا زاعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظن بالله الظنون فابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وبرغم من ذلك الهول الخارجى كان كيد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض أنكى وأشد «واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ٠٠ » الآيات (الأحزاب ١١ - ١٧) ويأتى قوله « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا » مصورا ما كان منهم وما يترصددهم من الوعيد ، فقول بعضهم لبعض فى هذه الحالكة « هلم الينا » ابلاغ فى طلب الاقبال اليهم والانصراف عن الوقوف فى صفوف المدافعين عن المدينة ، ولما كان الحال عصبيا والمقام رهيبا والاعتراض عن المجاهدة حبيبا الى بعض النفوس والرغبة فى التلاقى بعيدا عن ذلك الهول عظيمة جاء باسم فعل الأمر (هلم) ليعرب عما هو آخذ بنفوسهم ناشب فى قلوبهم من حب الفتنة والرغبة فى الخذلان .

وجاء الوعيد على ذلك فى صورة تعدل فى اعرابها عنه ما قام به اسم فعل الأمر من الاعراب عن حبهم الفتنة والخذلان ، فجاء قوله « قد يعلم الله المعوقين منكم ٠٠ » فهو اخبار يرمى الى حاق التهديد المرهب والوعيد المرعب ، فاخباره يعلمه أولئك المعوقين والثقاتلن انما هو اخبار بما هو مرصود لهم من صنوف العذاب والخذلان والمهانة . وفى دخول « قد » على المضارع « يعلم » اعراب عن عظيم تحقيقه المقتضى عظيم تحقيق ما هو

مرتب عليه من الوعيد (٦٩) .

ففى العدول عن « قد علم الله المعوقين » الى ما عليه النظم ابلاغ فى الاعراب عن تحقيق علم الله لهم يتناغى مع الاعراب عن ابلاغهم فى صرف اخوانهم فى النفاق عن مناصرة المسلمين والدفاع عن الذينة بقولهم (هلم الينا) سواء كانت « الواو » فى (والقائلين) معربة عن تغاير ذوات أو تغاير صفات لذات واحدة .

(٦٩) جاءت (قد) فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعمائة مرة . منها اثنتان وثمانون ومائة مرة مسبوقة باللام (لقد) وهى تدخل على الماضى فتكون حرف تحقيق ولا يكاد يفارقها وقد يضاف اليه وهى داخلة على الماضى التقريب من الحال مع التوقع أى يكون مصدره متوقعا لمن تخاطبه واقعا عن قريب ومنه قول المقيم الصلاة : « قد قامت الصلاة » والسياق معين على فهم ذلك وإذا ما دخلت على المضارع ، فانها تأتى لعان يحررها السياق ، فتكون للتقليل وللتوقع وللتكبير .

فمن التحقيق قول الشاعر : عبيد بن الأبرص :
قد أترك القرن مصفرا أنامله كان أنوابه مجت بفرصاد
ومن التكبير قول الشاعر : امرئ القيس :

وقد اعتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهى لم تدخل على المضارع فى القرآن الكريم إلا سبع مرات كان المضارع فيها من مادة (علم) :

« قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون » (الأنعام / ٣٣) ، « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » (الحجر / ٩٧) « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر » (النحل / ١٠٣) « قد يعلم الله المعيقن منكم » (الأحزاب / ١٨) « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأدا » (التور / ٦٣) . « قد يعلم ما أنتم عليه » (النور / ٦٤) .

راجع فى قد : رصفت المباني فى شرح حروف المعانى للمازنى ص ٤٥٥ ، مثنى اللبيب لابن هشام ص ١٤٧ - ١٥٠ ، جمع الجوامع ٧٢/٢
٧٣ البرهان للزركشى ٣٠٥/٤ = ٣٠٩ .

وتجتمع (قد) فى (قد يعلم) الى تحقيق علم الله بهم وبفعالهم ما يترتب عليه من تحقيق وعيده وتهديده له ، فليس الاخبار مصروفا الى مجرد الاعلام بمضمونه بل وبما هو مترتب عليه ، وهذا من سنن البيان القرآنى يعرب بالاخبار بعلم الله وقدرته عن عظيم تهديده ووعيده حيناً ، وعن عظيم فضله ومثوبته واحسانه حيناً آخر .

٢ - وجاء قوله (هيت) مرة واحدة فى الذكر الحكيم :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلج الظالمون » (يوسف / ٢٣)
فى سورة يوسف جاءت هذه الآية وهى سورة ترمى الى تبيان الدلائل الباهرة والقاهرة على تنزل القرآن الكريم ووحيه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى تبين على ما أسسته سورة يونس وسورة هود . واذا ما كانت سورة « يونس » قد أعلنت التحدى بقوله تعالى : « وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتنصیل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس / ٣٧-٣٨)
واذا ما كانت سورة « هود » قد أعلنت التحدى بقوله تعالى :

« أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتریات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (هود / ١٣) فانه فى سورة يوسف قد أعلن التحدى وأقام الدلائل على أنه من عند رب العالمين بأن قص فيها قصة نبي من أنبياء الله تعالى على نحو ام يكن مثله من قبل وما يكون لاحد غيره تعالى أن يخبر عنه على ما جاء به ، ولذا صـاـدـرـها بما لم يأت فى غيرها مثله : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين » (يوسف / ٣) وفى سياق أحداث هذه القصة وما وقع ليوسف من كيد اخوته وكيد امرأة العزيز جاء حديثه عن مرادتها له وتديبرها الايقاع به واحتفالها باغرائه

وفتنته ، فأعرب عن حالها هذا بأن أخبر عن مقاتلتها له بقوله « عيت لك » (٧٠) وهو اسم فعل أمر بمعنى بادر وأسرع ، وهو أبلغ في الدلالة على طلب الاسراع منهما فعدل عن فعل الأمر اليه ، ولما فيه من الدلالة على معنى التمكن كما سبق أن ذكرناه في معنى (دونك) ثانه ليس وزان قولك (خذ) في المعنى بل فيه ما ليس في (خذ) ، فيه اعراب عن القرب والتمكن والطلب والدعوة الى المبادرة الى الامتثال قبل فوات الفرصة ، فكان في قوله (ميت لك) اعرابا عما دبرته ، واحتفلت له لتتمكن منه ولكن الله صرف عنه السوء انه من عباده المخلصين .

٣ - وجاء قوله « هاؤم » مرة واحدة في الذكر الحكيم :

« فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ، (الحاقة/ ١٩) جاءت في سياق سورة الحاقة المنصوبة لتبيان ما يكون يوم القيامة من فصل بين الخلائق وانجاء من آمن واهلاك من كفر وجاءت هذه الآية في صدر تبیان حال من آمن فأوتى كتابه يمينه فيقول من حوله فرحا مسرورا « هاؤم اقرءوا كتابيه » وظاهر السياق أن قوله (هاؤم) وإن كان اسم فعل طلبى ، فإنه لا يراد به هنا حقيقة معنى الأمر على النحو الذى حفظناه في صدر هذا البحث ، فهو الى اظهار السرور والابتهاج أقرب . ولما كانت الفرحة بالنجاة عارمة والسرور بسظيم ما اكتسب بالغا أخرجه في صورة اسم فعل ليعرب بالعدول عن صيغة فعل الامر عما أنعم به قلبه من حبور وسرور .

٤ - وجاء قوله « مكانكم » مرة واحدة في قوله تعالى :

« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فوزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون ، فكفى

(٧٠) في (ميت) قراءات عدة بعضها يبعدها عن أن تكون اسم فعل أمر راجع : المبسوط لابن مهران ص ٢٠٩ ، وإبراز المعاني لأبى شامة ص ٥٣٣ ، العكبرى : التبيان في اعراب القرآن ج ٢ ص ٥١ .

بأنه شهيدا بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين » (يونس / ٢٨ - ٢٩)
فى سياق سورة يونس المنصوية لأقامة الدلائل على تنزيل الكتاب الحكيم
على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وفى مساق تبين ما كان من الكافرين المعاندين الذين لا يرجون
لقاء الله وما هو كائن لهم يوم القيامة مقرونا بما هو للدين أحسنوا
وصدقوا بالكتاب ، فى هذا المساق أخبر الله عز وعلا أنه يحشرهم جميعا
الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات ثم يقول للذين أشركوا : مكانكم
أنتم وشركاؤكم :

قوله (مكانكم) فى أصله ظرف أقيم مقام (الزموا) فصار اسم
فعل أمر بمعناه ، وفيه ضمير مستتر فى محل رفع والصمبر البارز
(أنتم) تؤكد له ، والكاف والميم فى موضع جر عند قوم وعند آخرين
للخطاب لا موضع لها كالكاف فى آياكم (٧١) وأمرهم بالانزلة حبس لهم
لأجل ما وقع منهم من شرك ولذلك كان الأمر لهم ولشركائهم الذين كانوا
يعبدونهم من دون الله وفى هذا الجمع بينهما إزال لهما ونحقر وتهوين
لما هو واقع بهم معا .

ولما كان السياق للإبلاغ فى طلب حبسهم فى مكانهم فلا يقدر
على مزاييلته بأنفسهم حتى يزاييل بينهم كان الآتى بذلك طلب اللزوم
باسم فعل الأمر المعرب عن ذلك الإبلاغ بما فيه من عدول وصرف عن
ظاهر اللفظ (فعل الأمر) فان فى ذلك الصرف آية على المباعدة فى المعنى
وهو طلب اللزوم وجاء قوله من بعده « فزينا بينهم وقال شركائهم
ما كنتم آياتا تعبدون » معربا عن هول الخسران الذى يلقاه المشركون .
شركائهم الذين كانوا يعبدون من دون الله .

وإذا ما كان معنى الأمر وحقيقته متحققا فى قوله (مكانكم) إذ أنه

يكون يوم القيامة فانه يعرب ايضا عما فيه من وعيد وتهديد للذين اشركوا وشركائهم واهانة لهم جميعا ، واعراب الصيغة عن هذه المعاني مع دلالتها على معنى الأمر وحقيقته لا يخرج الصيغة (اسم فعل الأمر) من عداها صورة من صور معنى الأمر .

٥ - وجاء قوله (عليكم) فى أكثر من آية من الذكر الحكيم الا أنه كان فى واحدة منها أقوى فى باب اسم فعل الأمر وفيما عداها كان دخوله فيه موضع نظر :

ما كان قويا فى عده اسم فعل أمر قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » (المائدة / ١٠٥)

فى سورة المائدة سورة الرءاء بالعقود وأعلى العقود وأحقها بالوفاء العقد مع الله بالإيمان به وبما أوحى ، والوفاء بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى مساق تبيان عناد الكافرين وتحسر المؤمنين عليهم جاء قوله « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » طائبا منهم ملازمة أمر أنفسهم واصلاحها من بعد قيامهم بما كانوا به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وليس عليهم التحسر على عناد من عاند .

ولما كان لزوم المراء حال نفسه واصلاحها بعد قيامه بما فرض عليه اصلىح له وبمجتمعه وأدخل فى باب التسليم بما قضى به الله والوقوف عند ما شرع والاجتهاد فيما فيه صالح النفس كان طلب هذا الزوم بالناس فثعرب عنه بالمعول عن فعل الأمر (الزموا أنفسكم) الى اسم فعل الأمر (عليكم أنفسكم) .

وهذا الذى قلنا انما هو على القراءة العشرية بنصب أنفسكم ، وحكى « الزمخشرى » عن « نافع » أنه قرأ برفع أنفسكم (٧٢) ومضى قراءة شاذة

مشكلة تخرج على وجهين : الأول : أن عليكم فى موضع الخبر المقدم وأنفسكم مبتدأ مؤخر ، وما يزال معنى انطلب والاغراء بافيا الا انه خرج من باب اسم فعل الأمر الى بلب الخبر المراد به الأمر والآخر : أن «أنفسكم» توكيد للظير المستكن فى عليكم ومفعول عليكم محذوف لدلالة المعنى عليه والتقدير عليكم أنتم أنفسكم صلاح حائكم وهذايتكم ، وتوكيد الضمير المستتر فى (عليكم) بالنفس من غير توكيد بضمير منفصل شاذ (٧٣) وعلى هذا الوجه ما يزال معنى انطلب باقيا .

ومما جاء فيه (عليكم) اسم فعل أمر مرجوحا قوله تعالى :

« والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ، وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مساءحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضىتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليما حكيما » (النساء / ٢٤) فى سورة النساء المنصوبة لتبيان الهدى فى بناء المجتمع الاسلامى الراسخ التسامح جاءت هذه الآية ، وفى مساق تبين ما حرم الله عز وعلا على المرء نكاحه .

بعد أن نهى عن نكاح ما نكح الآباء وما حرم بنسب او رضاع أو مصادرة تحريما مؤبدا أو مؤقتا ذكر ما حرم لتعلق حق الآخرين به وهن المحصنات حلائل الآخرين ، بين أن ما مضى انما هو كتاب الله عليكم .

ولاهل العلم فى تأويل قوله : « كتاب الله عليكم » مذاهب : أعلما أن قوله (كتاب) مصدر فعل محذوف أى (كتب) بدلالة قوله من قبل : (حرمت عليكم) أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره . الرموا كتاب الله ، وعلى الاول (المصدرية) يكون (عليكم) متعلق بالفعل المقدر ، وعلى الثانى (المفعولية) يكون (عليكم) دالا على المحذوف أو متعلنا بمحذوف

(٧٣) البحر المحيط ٣٧/٤ ، حاشية الفتوحات الالهية للحمل

أى الزموا كتاب الله المفروض عليكم والوجه الأول أقوى وليس فيه اسم فعل أمر .

ومن الوجوه المرجوحة ما ذهب اليه الكوفيون من أن (كتاب) منصوب بـعليكم لصحة تقدم معمول اسم فعل الأمر عندكم عليه ، وقد منعه الجمهور لضعف العامل (عليكم) فليس له فى التقديم تصرف (٧٤) وما هو مرجوح فى جعله اسم فعل أمر قوله (عليكم) فى قوله تعالى :

« ان الصلوة والرموه من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » (البقرة / ١٥٨) .

يذهب بعض أهل لعلم الى الوقف على (جناح) ويستدل بقوله (عليه) أن يطوف بهما) أى يلزمه أن يطوف بهما لأن الطواف واجب وخير (١) محذوف أى فلا جناح فى الحج .

هذا الوجه ضعيف جدا لتبتيه النص دونما مقتضى للقول بالوقف على جناح ، يضاف اليه أن جعل (عليه) اسم فعل أمر ضعيف لأنه انما يكون مع الخطاب لا مع الغيبة وحكى من نحو « عليه رجلا ليسنى » فإنه شاذ لا يقاس عليه ، فكيف يخرج عليه القرآن ؟

وكذلك تقدير خبر (لا) متهانت لا يتناغى مع النظم القرأنى فى دلالة فى قولنا فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح فى الحج) ؟

القول بالوقف على (جناح) جد شاحب ، وليس فى الآية اسم فعل

(٧٤) التبيان للعكبرى ١/ ١٧٤ - ١٧٥ ، الأصول لابن السراج .

شرح الكافية للرضى ٢/ ٦٨ ، المقرب لابن عصفور ص ١٥١ ، الانصاف فى مسائل الخلاف ١/ ٢٢٨ ، المقتصد ١/ ٥٧٧ .

أمر (وعليكم) متعلق بخبر (لا) (٧٥) .

ومما هو مرجوح أيضا جعل (عليكم) اسم فعل أمر في قوله تعالى:
« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين
إحسانا » (الأنعام / ١٥١) .

وذلك بناء على الوقف على قوله (ربكم) والابتداء بقوله (عليكم)
فيكون قوله (ألا تشركوا) معمولا لاسم الفعل (عليكم) فتكون (لا)
نافية أي عليكم عدم الشرك به و (أن) مصدرية (٧٦) .

ومذا الوجه مرجوح فالأعلى الوقف على « وبالوالدين إحسانا » (٧٧)
وعليكم متعلق بقوله (حرم) « وقيل بآتل ، والاول أنسب بمقام
الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة ، وهو السرف في التعرض
لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ، فإن تذكير كونه تعالى ربا لهم
ومالكا لأمرهم على الإطلاق من أقوى الدواعي إلى انتهائهم عما تنبأ عنه
أشد انتهاء » (٧٨) .

فدعوى الوقف على قوله (ربكم) شاحبة لا تليق بجلال النظم القرآني
وليس كل ما احتملته أعراف النحو في لسان العربية يمكن حمل النظم
القرآني عليه فضلا عن أنه لا ضرورة تحمل على اقتحام مثل ذلك التكلف
ومن النصح لكتاب الله حملة على ما هو أهيا وأهدى رتقى وانقى واسلم
من التكلف .

ما مضى بيان مواقع الكلمات التي ذهب جمهور أهل العلم إلى مجيئها

(٧٥) التبيان للعكبري ٧٠/١ .

(٧٦) السابق ٢٦٥/١ .

(٧٧) المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني ت / جايده

مخلفه ص ١٨٠ طبعة العراق - وزارة الأوقاف سنة ١٩٧٤ م .

(٧٨) تفسير أبي السعود ١٩٨/٣ .

(مصدرية)

اسم فعل أمر فى لسان العربية وفى بيان القرآن • ونم كلمات لم يقل جمهور أهل العلم بمجيئها اسم فعل أمر • والقائلون بذلك قليل •

من ذلك قوله (تعال) و (هاتوا) و (ورأىتم) و (لزام) و (مساس) فهذه الكلمات قيل فيها انها من باب اسم فعل الأمر

أما قوله (تعالى) فقد جاء فى القرآن مسنداً الى واو الجماعة سبع مرات والى نون النسوة (تعالين) مرة واحدة (٧٩) •

وجمهور أهل العلم على أنه لما برز فيه الضمير الواقع فى محل رفع به ، ولم يلزم حالة واحدة كان فعل أمر وليس اسم فعل أمر (٨٠) •

وقيل ان أصله طلب الاقبال من مكان مرتفع ثم أطلق فاستعمل فى مجرد طلب المجيء الى كل مكان ، فيقوله من هو فى منخفض لمن هو فى مرتفع ، وكأنه ما يزال يلحظ فيه العلو المعنوى وهو ارتفاع المنزلة . فكان الداعى به انما يدعو الى ما فيه رفعة (٨١) •

ومثل هذا التحول الدلالى لا يتبعه تحول الكلمة من الفعلية الى باب اسم الفعل ، لأن الفارق الرئيس بين الفعل واسم الفعل أن اسم الفعل لا يبرز معه ضمير ولا يتقدم معموله عليه ، وكذلك لا يضمير عنده الجمهور (٨٢) وعنصر المفارقة الاول مفقود فى مواقع (تعال) فى الذكر

(٧٩) جاء فى سورة آل عمران ي/٦١ ، ٦٤ ، ١٦٧ ، وفى سورة النساء ي/٦١ ، وفى سورة المائدة ي/١٠٤ ، وفى سورة الأنعام ي/١٥١ وفى سورة المنافقون ي/٥ ، وهر فيها اسند الى واو لجماعة وجاء فى سورة الأحزاب ي/٢٨ مسنداً الى نون النسوة •

(٨٠) جمع اليوامع ١٠٥/٢ وانظر الكشف ٤٢٣/١ ، تفسير أثير السمود ١٩٧/٣ •

(٨١) المفردات للراغب (مادة علو) ص ٣٤٦ ، الفتوحات الالهية للجمل ٢٨٢/١ •

(٨٢) جمع اليوامع ١٠٥/٢ •

الحكيم ، فقد برز الضمير فيها جميعا ، ولم تلزم حاتم واحدة لما قول : أنها أفعال هو الأعلى .

وكذلك الفعل (هات) جاء في القرآن الكريم في أربعة مواضع (٨٣) وقد جاء فيها الضمير بارزا « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانتهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (البقرة / ١١١) قيل ان أصل « هات » « آت » قلبت الهمزة هاء (٨٤) وهذا الفعل لم يقع في الذكر الحكيم الا متعديا الى « البرهان » وهو في مواضعها كما فيه خارج عن حقيقة معنى الامر التي بينهما من قبل ، فهو فيها يعرب عن التبيكيت والتعجيز .

فالزعم أنه اسم فعل أمر بمعنى (احضروا) برز فيه الضمير لقوة شبهة بالفعل ، وهذا الضمير البارز مؤكد للمستتر المرفوع به انها هو زعم شاحب (٨٥) .

أما كلمة (وراء) فقد جاءت في الذكر الحكيم في أربعة وعشرين موقعا لم يقل أنها اسم فعل أمر الا في قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم ، فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (الحديد / ١٣) .

فقد ذهب بعض أهل العلم الى أن قوله (وراءكم) اسم فعل فيه ضمير الفاعل أي ارجعوا ارجعوا ، وليس بمعروفا « كذا » (٨٦) لقلة فائدته ،

(٨٦) جاء في سورة البقرة ي/ ١١١ ، الانبياء ي/ ٢٤ ، النمل ي/ ٦٤ والقصص ي/ ٧٥ .

(٨٤) شرح المفصل لابن يعيش ٣٠/ ٤ ، تفسير ابن السعدي ١٤٧/ ١

(٨٥) شرح المفصل لابن يعيش ٣٠/ ٤ .

(٨٦) هو كذلك في التبيان في اعراب القرآن للعكبري . طبعة (١)

لأن الرجوع لا يكون الا الى وراء (٨٧) والقول بقلة الفائدة من جعله ظرفا معمولاً لقوله (ارجعوا) غير قويين لأمرين :

✽ أن قوله «لأن الرجوع لا يكون الا الى وراء» لا يستدل به ، لقوله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالهم » (الانعام ٣٨) فالطيران لا يكون الا بجناحين ، وكذلك لقوله تعالى : « يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم » (الفتح / ١٧) فان القول لا يكون الا باللسان ، وكذلك لقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقلون هذا من عند الله » (البقرة / ٧٩) فان الكتابة لا تكون الا باليد ،

✽ أن الأتيق بالسياق وبما هو ماثور عن أهل العلم من السلف وعن السنة أن المعنى ارجعوه الى الموقف الذى كنتم فيه حيث أعطينا هذا النور فالتمسوه هنا ، وهو تبكيك وتحسير خارج عن حقيقة معنى الأمر قال ابن عباس : أى من حيث جئتم من الظلمة أو الى المكان الذى قسم فيه النور .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي فى البعث عن ابن عباس : قال : بينما الناس فى ظلمة اذ بعث الله نورا ، فاما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلهم من الله الى الجنة فاما رأى

سنة ١٣٩٩ - المكتبة التوفيقية القاهرة ج ٢ ص ٢٥٥ ، وكذلك فيه على هامش الفتوحات الالهية للجمال طبعة عيسى الحلبي ج ٤ ص ٣٨٤ - ولكن فيما نقله الجمال فى حاشيته تصويب لقوله (معروف) نقله عن السمين : « ومنع أن يكون ظرفا لارجعوا قال لقلة فائدة » ، لأن الرجوع لا يكون الا الى وراء » ج ٤ ص ٢٨٩ ، فالصواب أن يقال وليس يظرف لقلة الفائدة .

(٨٧) التبيان للعكرى ٢/٢٥٥ .

لشفاقون المؤمنين قد انطلقوا الى النور تبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : أنظرونا نقتبس من نوركم ، فانا كنا معكم فى الدنيا ، قال المؤمنون : ارجعوا وراءكم من حيث جئتم من الظلمة فالتسلسروا هنالك النور(٨٨) .

ومثل هذا لا يقال بالرأى لأنه من غيب الغيب ، وانزال المعانى على ما جاءت به السنة وما ورد عن سلف الأمة هو الأعلى والأهدى فدعوى « العكبرى » عدم الفائدة فى ظرفية (وراءكم) غير قوية ولعمرة لم يطلع على ما ورد عن السلفاً .

أما قوله (لزاما) فقد وقع فى القرآن الكريم مرتين : فى سورة طه (١٢٩/١) ولا كلام فيها وسورة الفرقان قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى :

« قل ما يعجز بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسرف يكون لزاما ، (الفرقان / ٧٧) .

انه على قراءة فتح اللام وكسر الميم على وزان (نزال) اسم فعل امر بمعنى الزم أى فسوف يكون قول (نزام) أى الزموا .

وهذه قراءة غير عشرية نقلها ابن خالويه عن أبى السماك(٨٩) ومن البين ان ما كان على وزان (نزال) انما هو قياسى ، الا أن المعنى عنده فى الآية ليس الأجل والأعلى ، وانما الأعلى أنه خبر ليكون والمعنى فسوف يكون جزاء هذا التكذيب عند انقضاء ما ضربه لكم من آجال ... لزاما أى لازما لكم لزوما عظيما لا انفكاك له عنكم بحال (١٠) .

(٨٨) ينظر : فتح القدير للشوكاني ١٧١/٥ . تفسير ابن كثير

٣٠٨/٤ - ٣٠٩ روح المعانى للأوسى ١٧٦/٢٧ .

(٨٩) البحر المحيط ٥١٨/٦ ، روح المعانى ٤٥/٢١ .

(٩٠) نظم الدرر للبقاعى ٤٣٩/١٣ (بتصرف) .

أما قوله (مساس) فقد ورد في قوله تعالى :

« قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس » (طه/٩٧)
قرأ الحسن وأبو حيوة وابن أبي عبلة وقعناب (مساس) يفتح الميم
وكسر السين على وزان (نزال) (٩١) وهي قراءة غير عشيرة ومن البين
أن هذا يحتمل واحدا من وجهين :

الأول : أنه معدول عن مصدر كفجار ونحوه والمصدر هنا (المسة)
كمعدول فجار عن المصدر (الفجرة) وهو على هذا الوجه ليس من اسم
الفعل في شيء . ذلك ما ذهب إليه الزمخشري .

والآخر : أنه معدول عن فعل أمر (امسس) كما في نزال ودراك ،
فهو من اسم فعل الأمر (٩٢) .

والوجه الأول هو الأعلى في توجيه هذه القراءة غير العشرية فتكون
(لا) نافية للجنس (٩٣) فيخرج عما نحن فيه من دلالة اسم الفعل
على الأمر إلى باب الخبر المنفي المراد به النهي ، فكأنه قيل : أن تقول
لا تمسسنى ، وهذا الوجه هو المتناهي مع القراءة العشرية (مساس)
بكسر الميم وفتح السين مصدر ماس كقتال من قاتل ، فالذهاب إليه هو
الأهدى في فقه المعنى .

(الثالثة) المصدر النائب عن فعل الأمر :

ينوب المصدر عن فعله ، كما في « سقيا زيدا » فيكون الناصب
« زيدا » هو المصدر عند جمهور أهل العام ، لأن المصدر صار بدلا من
الفعل (اسق) فورث عنه عمله ، وصار أنفعل نسيا منسيا ، وعلى ذلك
يكون الدال على طلب السقي هو المصدر النائب عن فعله .

(٩١) البحر المحيط ٢٧٥/٦ .

(٩٢) الكشف ٥٥١/٢ ، وانظر البحر المحيط ٢٧٥/٦ .

(٩٣) التبيان في اعراب القرآن المعبرى ١٢٦/٢ .

ويذهب جماعة الى أن الناصب للمقتول به « رندا » إنما هو القتل المحذوف وجمهور الجلاغيين المتأخرين لم ينصوا على المصدر في باب الأمر (٩٤) وكانى بهم لا يرون فيه دلالة على الطلب بنفسه بل يفعل المحذوف .

وتصوير معنى الأمر في صورة المصدر جاء في الذكر الحكيم غير أن حصر صورته فيه عسيرة لأن بعض هذه الصور باب الاحتمال فيها فسيح من هذا قوله تعالى :

« فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » (البقرة / ١٧٨) فسياق الآية الترغيب في المصالحة عن الدماء (٩٥) وذلك أمر عظيم لا تكاد تذلل النفس العربية إليه سريعا ومعالجتها له جد هظيمة فلا تكون صيغة الأمر (افعل) أو (لتفعل) قائمة فيه بما يراد بعدل عن قولنا : فمن عفى له من أخيه شيء فليتبعه بالمعروف وليؤد إليه بإحسان ، الى ما جاء عليه النظم من اقامة المصدر (اتبأع) و (أداء) مقام فعل الأمر ، فإن في هذا العدول الى المصدر ورفع دلالته على الثبات ولتحقيق تحريضا على ايقاع الاتباع والأداء على النحو الأمثل واصطفاء كلمة (أخيه) والمراد به القاتل على معنى فمن أعصى العفو والميسور من أخيه لقائل فليقبله في هذا ، لاصطفاء أعراب عن ما بين القاتل والمقتول ووليه من رابطة أخوة الاسماء وهذا ادعى الى الاقبال على المصالحة ، وكذلك اصطفاء كلمة (عفى) العربية عن مراعاة التيسير والمسامحة من قبل ولي المقتول ، وكذلك قوله (شيء) وتكبره كل ذلك فيه ما يتناغى مع الترغيب في المصالحة .

(٩٤) المفتاح/١٥٢ بغية الايضاح ٥٣/٢ ، المطول / ٢٤٠ ، ومواهب
الفتاح ٣١١/٢ ، عروس الافراح ٣٠٩/٢ ، الاشارات والسميات لخدمه
بن علي الجرجاني / ١١٦ .
(٩٥) التحرير والتنوير ١٤١/٢ .

وهكذا ترى السياق والسباق داعيان الى اصطفاء المصدر النائب
عن فعل الامر فى (اتبع) و (اداء) ورفعهما تأكيداً لمعنى النبات
والتحقيق لما تدعو اليه الآية من قبول ولى المقتول ما تيسر من القاتل
ومن حرص القاتل على بذل ما فى طوقه باحسان .

ومن هذا الضرب قوله تعالى :

« الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح باحسان » (البقرة/ ٢٢٩)
جاءت هذه الآية فى معرض تحرير ما للرجل من حق وما عليه
من واجب فلا افراط ولا تفريط . كان من حق الرجل أن يصلق وأن يراجع
وكان ذلك فى الجاهلية ممدودا غير محدود بحد حتى وإن بلغ الطلاق
والرجعة فى العدة ألفاً (٩٦) وفى هذا اعتداء وظلم لا نستقيم معه حركة
الحياة على هذه الأرض ، فجاءت الآية تحد الطلاق الرجعى ، فللرجل أن
يراجع فى العدة مرتين . ومن ثم جاء قوله « فامسك بمعروف أو تسريح
باحسان » ومن وجوه المعنى فى هذا أن هذين المصدرين نائبان عن فعليهما .
أى فليمسك بمعروف أو فليسرح باحسان ، وعدل عن لنصب الى الرفع
فى المصدرين لتحقيق معنى المطلوب على اتوجه الأمثل الأكمل ، أى فان
اختار الامسك ، فليكن على الوجه الأعلى وإن اختار التسريح ، فليكن
باحسان ، لأن وقوع الطلاق ذو أثر بالغ فى نفس الزوجة ، فإذا اتبعه
امسك بمعروف أو تسريح باحسان أزال ذلك ما كان من أثر الطلاق ،
وكلما بولغ فى تحقيق الامسك بالمعروف أو التسريح باحسان كلما كان
بذلك أشفى وأجدى .

(٩٦) روى الامام مالك فى الموطأ عن هشام بن عروة عن أبيه حديثاً

فى هذا المعنى . راجع الموطأ كتاب جامع الطلاق حديث رقم ١٢٨٢ ج ٣

ص ٢١٨ (شرح الزرقانى) .

ومنه قوله تعالى :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج » (البقرة / ٢٤٠) .

فان من وجوه المعنى على قراءة الرفع فى (وصية) وجب قراءة نافع وابن كثير والكسائى وأبى بكر عن عاصم وأبى جعفر ويعقوب وخالف (٩٧) أنه مصدر نائب عن فعل أمر أى فليوصوا لأزواجهم وعدل عن النصب الى الرفع ابلاغاً فى طلب التحقيق والدوام أما على قراءة النصب فيه وفى قوله (متاعاً) فوجه نيابة لمصدر عن فعل الأمر باقية وإن ذهب ما يعرب عن الرفع وكل قراءة تصور وجهاً من وجوه الدلالة ، فليس الناس سواء فى الوصية لأزواجهم فمنهم من يسعى الى التحقيق والالزام فله الرفع ومنهم من يوقع الوصية على وجه ما فله النصب -

وهذه الآية جمهور أهل العلم على أنها منسوخة حكما بقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ، والله بما تعملون خير » (البقرة / ٢٣٤) (٩٨) .

ولسنا هنا بصدد النظر فى علائق معانى الآيات وأسمائها ومقامها فى بناء المعنى القرآنى فى السورة ، بل نحن الى النظر فى صورة معنى الأمر فى الآية . ومن ذلك قوله تعالى :

(٩٧) المبسوط لابن مهران ص ١٣١ .

(٩٨) راجع : الناسخ والمنسوخ للنحاس - ت/ الدكتور سفيان اسماعيل ص ٨٧ ، معرفة الناسخ والمنسوخ لابن حزم ص ٣٢٥ ، تلى هامش تنوير المقياس (ط / مصطفى الحلبي سنة ١٢٧٠) ، أحكام القرآن لابن العربى ٢٠٧/١ ، أحكام القرآن للكبى الهراوى ٢٨٠/١ .

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » (البقرة / ٢٨٠)

جاءت هذه الآية فى مساق الهدى فى أمر الربا وأنره وما يجب ان يكون فى معالجة ما هو كائن زمن التشريع - ومثله زمن الانابة والتوبة .
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين »
فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رهوس
أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون »

فانذر من نفر عن هديه وجمع وهدى من تاب وأتاب بأن له رأس ماله
لا غيره ، لا يظلم ولا يظلم .

ولما كان اقتضاء التائب رأس ماله ممن هو عنده قد يتكرر معه عسر
من أخذ هدى الى ما فيه توثيق عروة الأخوة وتمكين التوبة فى قلب
صاحب المال وتطهيره مما أغرقه من رجس الربا وظلمه . فأعرب عن أن
المدين ان كان معسرا فليظلمه صاحب المال الى ميسرة بل برقى
من الانظار الى الميسرة الى الواج الى رحاب أعظم : ردائى التصديق عليه
بما عجز عنه فجاء هديه الى الانظار فى صورة المصدر العدول به عن
فعله الامرى وعن نصبه على المصدرية الى رفعه على الإبتداء أى فنظرة
للمعسر الى ميسرة .

وفى هذا العدول عن الفعل الى مصدر وعن النصب الى الرفع ابلاغ
فى طلب تحقيق الانظار على النحو الأرفع والاقدر على تطهير صاحب المال
ما كان غارقا فيه من ظلمات الربا ودياجيره ورجسه وركسه ، فان عظم
الداء وطوله أمدّه أحوج الى عظم الدواء وكماله . وفى هذا اعراب أيضا
عن أن المطلوب تحقيق انظار هو أعون للمعسر على ان تستمر حركته وان
يتحرر من ربة الحاجة ومذرة الدين وقهر العجز فاذا انظر انظارا حسنا
أطلق حركته وشجذ عزيمته ، فسعى وآمن أن فى الآمة روح التراحم
والتكافل فكان خيرا له ولصاحب الدين وللامة .

وفى بيان هذه الآية تمميما وتخصيضا مقال لاعن اعلم : ذهب قوم الى أن الآية خاصة بمعسر الربا دون غيره من معسرى الديون الأخرى ، فالمعنى وإن كان المدين بالربا معسرا فليتنظره صاحب المال الى ميسرة وهذا يتناسب مع السياق الخاص ، فهو مساق ربا ، ويتناسب مع قراءة (ذا عسرة) بالنصب على أنه خبر (كان) الناسخة وهذا الوجه مروي عن شريح ونسب الى ابن عباس .

وذهب الحسن وإبراهيم والربيع الى أن ذلك غير خاص بمعسر الربا بل هو فى كل معسر وهو ما يتناسب مع قراءة الرفع فى (ذو عسرة) على أن كان تامة أى إن وجد أو ناقصة والخبر محذوف تقديره وإن كان ذو عسرة لكم عليه حق أو نحو ذلك ، فتكون الآية وسياقها مما أوله خاص وآخره عام وهو مذهب فى لسان العربية وبيان انذكر الحكيم (٩٩) .

والقول بعموم الآية على لاجب مساق خاص أهلى وأعراب ، فيه من الهدى أن ما كان السياق له وهو معسر الربا أولى بالانظار حتى يكون ما فى انظاره من تكفير ما أوقع عليه من ظلم بقصد وجه الله عز وجل بانظاره مقابلا ما فى ظلمه من قبل بدفعه الى سد حاجاته وضروراته بدين ربوى محيق .

وفى العموم هدى الى أن الانظار لكل معسر أولى بمن تاب وأتاب فعلى قدر ما دفع الأغنياء بامتناعهم عن الزكاة والصدقة اخوانهم الفقراء الى مذلة الدين وقهر الاعسار يكون انظارهم وتفريح كربهم .

والآيتان بالمصدر (نظره) ورفعته يتناغى مع البناء الكلى للآية وللسياق الخاص الذى أقيمت فيه وللسياق العام بالمسورة ، ومما يعنى ذلك التناغى ما تراه فى قراءة نافع (ميسرة) بضم السين وفى قراءة

(٩٩) أحكام القرآن لابن العربي ٢٤٥/١ ، أحكام القرآن لآبى الهراس ٢٦١/١ ، فتح القدير للشوكاني ٢٩٨/١ ، التبيان للعكبرى ١١٧/١ .

الجمهور بفتح السين(١٠٠) فالرفع فيه اعراب عن الدعوة الى أن ينظر الى ميسرة قوية ظاهرة قوة صوت الضمة وظهوره ، فهي أقوى الأصوات اللينة (الصائتة الطويلة) وفي الفتح اعراب عن الدعوة الى انظاره الى اتساع يسره بما يكفى حاجته أولا ثم ما يقضى دينه ، فلا يليق استيفاء الدين مما اكتسبت يده دون إبقاء له ما يعصمه من التردى في عائلة الدين مرة أخرى ، فالرفع دعوة الى ملاحظة تمكنه في باب الميسرة والفتح دعوة الى ملاحظة اتساع حاله ، لما في صوت الفتحة من الفسحة ، وهذه المعاني الاحسانية الملحوظة تتناغى مع الدعوة الصريحة الى تسنم درج التصديق بالدين (وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) بتلك دعوة تدفع التائب عن استغلال عوز أخيه الى أن يتحرر من طاغوت المال الذي أنساه حق الاخوة في الله ، فيتصدق به .

وجاءت الابانة عن ذلك بالمصدر المؤول من (ان) والمضارع للاعراب عن أن ذلك خير في كل صوره ودرجاته ، فالفعل تنوع درجات ايناعه ، فأى وجه من وجوه التصديق خير من الانظار الى ميسره .

وجاءت القراءات في (تصدوا) متناغية مع هذا الترفي في درجات الهدى : قرأ عاصم وحده د وان تصدقوا ، خفيفة الصاد وقرأ الباقون (تصدقوا) مشددة الصاد(١٠١) .

في التخفيف اعراب عن أدنى درجات التصديق ، وفي التشديد ابانة عن الإبلاغ فيه ، وهو ما يتناسق مع حال أصحاب الدين وتفاوتهم .

وفي قوله (ان كنتم تعلمون) الهاب وحث وسوق الى مقام الاحسان وما خيرية التصديق بشروطة يعلم المتصدق بقدرها ومبيلتها بل ذلك اعراب عن أن العلم بتلك الخيرية ينشل العبد من وحل التوقف والتخوف الى الابحار في المسارعة والمنافسة في التصديق على المدمر بما هو مدين به

(١٠٠) المبسوط لابن مهران / ٢٨٠

(١٠١) الموضع السابق .

٢ - صيغة النهي :

الحق أن للنهي صيغة موضوعة للدلالة على حقيقة معناه وشعوره تحقيقيا ، وجمهور أهل العلم على أن صيغته هي (لا) العازمة الداخلة على فعل مضارع (١) والأعلى أن (لا) حرف غير مركب عن خلاف ما يذهب إليه بعض أهل العلم (٢) .

ويكثر دخول (لا) الناهية على مضارع رافع ضمير خطاب ، كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » (المائدة / ٥١) فإن النهي في (لا تتخذوا) مرجع إلى المخاطبين المنادى عليهم بعنوان الإيمان الداعي إلى الانسراج إلى طاعة الناهي . وعدل عن مثل قولنا لا توالوا اليهود والنصارى إلى الهمى عن اتخاذهم أولياء ففي اتخاذ معنى التمكن والسعى إلى الشيء والعناية بأمره تقول اتخذت فلانا صديقا ، ومنه « فاتخذت من دونهم حجابا ، (مريم / ١٧) ، « تتخذون من سهولها قصورا » (الأعراف / ٧٤) فهو نهى موجه إلى أعلى صور الموالة تنفيرا وتقبيحا لجميع صورها فإنه نهج في بيان القرآن العظيم وجاء قوله (بعضهم أولياء بعض) « لتعديل النهي وتأكيد إيجاب الاجتناب عن المنهى عنه أى بعضهم أولياء بعض مذكرون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون ومن ضرورته إجماع الكل على مضادتهم ومضارتكم بحيث يسومونكم السوء ريبنونكم الفوائل فكيف يتصور بينكم وبينهم موالة » (٣) وهذا باق فيهم إلى يوم القيامة

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٥٢ ، المطول ص ٢٤٠ ،

الاطول ٢٤٩/١ ، شروح التلخيص ٣٢٤/٢ .

(٢) ينظر مع الهوامع للسيوطي ٥٦/٢ .

(٣) ارشاد العقل السليم لأبي السعود ٤٨/٣ .

لم ينسخه شيء اذ ان سورة المائدة نزلت بعد صلح الحديبية ولم ينسخ
منها شيء ، عند جمهور أهل العلم (٤) فهو من الهدى المحكم ، وجاء قوله
« ومن يتولهم منكم فإنه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالين » بالغ الزجر
والوعيد لمن والا هم من بعد ذلك ، ولا يفعلها الا منافق في قلبه مرض •
وهذا النظم من صيغة النهي في الذكر الحكيم هو أكثر أنماطها فقد
جاء في سورة البقرة وحدها في رواية حفص عن عاصم ، على سبيل
المثال ثمانى وثلاثين مرة (٥) وتسعا وثلاثين مرة في قراءة نافع وبعقوب (٦)
وقد يكون مدخول (لا) الناهية لمضارع الرفع ضمير غائب أو اسما
ظاهرا اذ هو في قوة الضمير الغائب ومن ذلك قوله تعالى : « لا يتخذ
المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله
في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير »
(آل عمران / ٢٨) •

وما جاء في سورة المائدة أشد في النهي عن موالاته غير المؤمنين وذلك

(٤) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس - ٣ شعبان اسما عيل
ص ١٤١ (ط / ١ / سنة ١٤٠٧ هـ) عالم الفكر بالقاهرة ، المحرز الوجيز
لابن عطية ١٢٦/٥ (ط / المغرب) والنظم الفنى للصعدي ص ٨٩ •
(٥) جاء هذا في الآيات الآتية من السورة / ١١ - ٢١ - ٣٥ - ٤١ - ٤١ -
٤٢ - ٤٢ - ٦٠ - ١٠٢ - ١٠٤ - ١٣٢ - ١٤٧ - ١٥٠ - ١٥٤ - ١٦٨ -
١٨٧ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٥ - ١٩٦ - ٢٠٨ - ٢٢١ - ٢٢١ -
٢٢٢ - ٢٢٤ - ٢٢٦ - ٢٣١ - ٣٣١ - ٣٣٣ - ٣٣٣ - ٣٣٥ -
٣٣٧ - ٢٦٤ - ٢٦٧ - ٢٨٢ - ٢٨٣ •

(٦) قرأ نافع وبعقوب قوله تعالى ولا تسأل عن أصحاب الجحيم
(١١٩) بالجزم (لا تسأل) على النهي (راجع إلى سورة الان لابن مهران
ص ١٢١) •

اليق بسياق سورة المائدة وبمرحلة التشريع التي رأت فيها . فان فيها ابلاها في النهى حيث وجه الى كل من كان له من الايمان نصيب وان لم يبلغ فيه مبلغ الذورة ، فجاء البيان بقوله « الذين آمنوا » دون قوله « المؤمنون » والفرق بينهما في مدرجة الايمان بين في الواقع وفي البيان القرآني ، وجاء البيان عن المنهى عن موالاته بقوله (اليهود والنصارى) دون قوله (الكافرين) ليعم كل من كان من هذين الفريقين أيا كان مقامه في الاستمسك بهما فالانتساب الى أى منهما موجب لما عفاصة والبراءة من الموالاتة وهذا أفسح مجالا من قوله (الكافرين) لانه قد يظن أن من كان يهوديا أو نصرانيا ليس بالبالغ مبلغ الماحد في التكفير فلا يكون مثله في النهى عن موالاته ، وذلك غير قوي ، فكل من كان غير مسلم ، فهو منهى عن موالاته أيا كان موقعه في الكفر بالله أو برسالة الله صلى الله عليه وسلم ، واذا ما كان هذا مبلغ النهى مع من كان يهوديا أو نصرانيا وهو من أهل الكتاب فانه مع من كان غيرهم أشد وأبلغ . وهذا كله آتس بسياق (المائدة) وموقعها في مدرجة التشريع ، وان كان التحذير والوعيد فيها حد عظيم ولم يستثن من النهى حالا من الأحرار . بينما سورة (آل عمران) كان فيها البيان عن النهى موالاتهم يوسف (الكافرين) وجاء التحذير والوعيد دون ما كان في المائدة (وندرتهم الله أنفسهم) ومن بعد أن استثنى حالة الموالاتة الظاهرة تقية ، وفي هذه دلالة على أنه أسبق في باب التشريع مما في سورة المائدة ، لأن فتح باب المواتاة الظاهرية اتقاء فيه اشارة الى أن المؤمن لا يلجأ الا اضطرارا وأن ذلك نازل في حقية المهادنة ، ولذلك قال قوم من السلف : لا ثقة بعد أن أعز الله الاسلام ، وقوله « من دون المؤمنين » يعنى ظاهرهم أن ذلك النهى مقدر بما اذا كانت هذه المواتاة خاصة بالكافرين مقصورة عليهم أما ان كانت أمرا عاما بين مواتاة الكافرين والمؤمنين فلمس من المنهى عنه في شيء وفقا لما يمكن أن يتخذ من ظاهر النص بسبيل مفهوم الحالفة (٦)

(٦) الملاحون الخارجون من المؤمنين في باب القسوة دون (فما هم

وهذا غير قويم اذ ان تحقيق الموالاة بين الفرقتين والجمع بينهما في غير ما تعارض لا يكون البتة الا اذا تغل الكافرون عن منهجهم في العلاقة بالاسلام وأهله ، وهو منهج معاندة ومناهضة ، أو اذا تغل المؤمنون عن حقيقة الايمان فلا يكون أيضا جمعا بين موالاة الفريقين ، فلا يستقيم القول بأن المنهى عنه « اتخاذ الكافرين أولياء دون المؤمنين ، أو ولاية المؤمن الكفار التي تنافي ولايته المؤمنين ، وذلك عندما يكون في تولى الكافرين اضرار بالمؤمنين ، وأصل القيود أن تكون للاحتراز » (١) أضف اليه ان في الموالاة معنى المناصرة ، وهي لا تتحقق لكافر الا لزما اضرار بمسلم ما ان عاجلا أو آجلا فمناصرتهم دون اضرار بأحد من المؤمنين أيا كانت صورة الاضرار أمر لا يكون ، والله سبحانه وتعالى قد هي في السورة نفسها عن اتخاذ بطانة من دون الذين آمنوا : « يأنها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا » (الآيات ١١٨ - ١٢) وفي البطانة معنى المداخلة والمقاربة وهي من دون الموالاة والمناصرة . والله عز وعا لم يأذن لنا في الذين لم يقاتلونا في الدين ولم يخرجونا من الديار الا بالبر والقسط وهما غير الموالاة « لا ينهياكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » (الممتحنة ٨) والمقاتلة في الدين غير محصورة في المقاتلة بالسيف وما ضارعه فان صور المقاتلة كثيرة قد يكون السيف أدناها ، فالفتنة والاحتكار والغش وتضليل الفكر وتزييب الحق ونشر المرض ... الخ اعنى وانكى من ضرب بسيف وما يفعله بالمسلمين اليهود والنصارى والملحدون ومن شايئهم هو من المقاتلة في الدين . فالقيد في قوله (من دون المؤمنين) انما جاء مصورا

قصر أفراد و (مكان) فيما هو قصر قاب أى أن (دون) تدل على المشاركة وذلك من قبيل الاصطلاح وقد صحح استعمال أحدهما موضع الآخر (شروح التلخيص ١٧٥/٢ - ١٧٧)
(٧) التحرير والتنوير ٢١٦/٣ .

أعلى صور ما ينهى عنه ومن سنة البيان القرآني حين يذهب إلى الإبلاغ في النهي عن الشيء أن يعمد إلى أعلى صورة وأشد تعبا فيذهب عنها بغيره الوصول إلى أن يقلع عن الفعل كله ولا يتلبس المنهى بأي صورة من صور الفعل وذلك مساك من مسالك التربية والتهذيب والامانة (٨) وهذا ما تراه جلليا في معالجة الأمة في كثير من الأدواء الموبقة كالم : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » (آل عمران / ١١٠) والزنا كما في قوله تعالى : « ولا تكررهم فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » (النور / ٣٣) وموالة الكافرين كما في الآية التي نحن معها . فإن هذه الأفعال الربا والزنا وموالة الكافرين من المنهيات للأمة حسا ومعنى .

وقد جاءت (لا) الداخلة على مضارع رافع اسما ظاهرا أو ضمير غائب أربعا وأربعين مرة على قراءة جفص عن عاصم (٩) وبعض هذه الضرر كان المعنى على نهى المخاطب ، وإن يكن ظاهر النظم شيئا لغيره ، كما في قوله تعالى : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم إن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم » (آل عمران / ١٧٦) فانه من بعد أن بين أن الذين يشبطون المسلمين عن القتال إنما هم

(٨) دلالات التركيب للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٧٤ .

(٩) جاء ذلك فيما يأتي : (البقرة) ٢٣٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢ (آل عمران) ٢٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٩٦ (المائدة) ٢ ، ٨ ، ٤١ - (الاعراف) ٢ ، ١٧ - (الانفال) ٥٨ (التوبة) ٢٨ ، ٥٥ ، ٨٥ - (يونس) ٧١ (هود) ٨١ ، ٨٦ (الحجر) ٦٥ (الكهف) ١١٠ (طه) ١٦ (الحجج) ٦٧ (النور) ٢ ، ٣١ ، ٣١ ، ٣١ (النمل) ١٨ (النقص) ٨٧ (الروم) ٦٠ (لقمان) ٢٣ ، ٢٣ ، ٢٣ (فاطر) ٥ ، ٥ ، ٨ (يس) ٧٦ (غافر) ٤ (الزخرف) ٦٢ (الحجرات) ١١ ، ١٢ (المنافقون) ٩ (الطلاق) ١ :

(روم) ١٠٠ (سورة)

جند الشيطان يخفونهم أولياءه : أبا سفيان وأعوانه ، ونهى المسلمين عن
الخوف منهم وأمرهم بالخوف منه جل جلاله ، وجه الكلام الى قائد الامة
صلى الله عليه وسلم فقال (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) فهو
وان كان نهيا للذين يسارعون في الكفر عن احزانه فانه في حقيقته نهي
للنبي صلى الله عليه وسلم عن أن يحزن بأسراعهم في الكفر فكانه قال :
لا تحزن بأسراعهم في الكفر وبين أنه أن اسراعهم هذا لن يضر الله شيئا ففيه
ابلاغ في نهيه عن الانشغال بهم تأثيرا في الاسلام والمسلمين أو الانشغال
بمصيبرهم فكان قوله (انهم لن يضروا الله شيئا) كناية للنبي عن الأول
وكان قوله (يريد الله الا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم)
كناية للنهي عن الثاني .

وقد جاء مثل ذلك في أربعة مواضع أخرى من القرآن (١٠) كان
النهي في جميعها دالا على نهى النبي صلى الله عليه وسلم وظاهره نهى
غيره .

وقد تكون (لا) النافية داخلة على مضارع رادع ضمير خطاب على
قراءة واسما ظاهرا على قراءة أخرى ، كما في قوله تعالى : « ولا يحسبن
الذين كفروا انما نملي لهم خيرا لانفسهم انما نملي لهم ليذاذوا انما ولهم
عذاب مهين » (آل عمران / ١٧٨) قرأ عاصم والكسائي وحلف وأبو جعفر
ونافع وابن عامر ويعقوب بالياء في (يحسبن) على أنه نهى للذين كفروا
وقرأ بقية العشرة : ابن كثير وأبو عمرو وحزمة بالتاء على أنه نهى للنبي
صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب (١١) .

وعلى القراءة الأولى (بالياء) فيه مشاكلة لما عطف عليه من قوله
تعالى : (ولا يحزنك الذين يسارعون) فكلاهما نهي موجه الى غير

(١٠) المائدة / ٤١ ، يونس / ٦٥ ، لقمان / ٢٣ ، يس / ٧٦ .

(١١) المبسوط لابن مهران ص ١٤٩ .

المخاطب ، وفيه مناسبة دلالية فإن مال نهى الذين كفروا عن الحساب . .
تهيهم عن السرور بظاهر املائه تعالى لهم بناء على حسابان حريته لهم
وتحسирهم ببيان أنه شر بحت وضرر محض ، كما أن مال انعطوف
عليه نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحزن بظاهر حال الكفرة
بناء على أنهم قد يضررون المسلمين باسراهم في الكفر وتبشيرا له
صلى الله عليه وسلم ببيان عجزهم عن ذلك بالكلية (١٢) .

وعلى القراءة الثانية (بالباء) يكون نهيا للنبي صلى الله عليه وسلم
عن فعل لم يقع منه فلا تكون الصيغة دالة على حقيقة منى النهى الذى
حققناه لأن هذا الحساب لا يقع منه صلى الله عليه وسلم اذ الحساب
فى المعجم الدلالى للقرآن لا يستعمل الا فى مقام الدلالة على البعد عن
الحقيقة والصواب فحيث ورد هذا الفعل (حسب) فهو دال على ضلال
فاعله فيما ذهب اليه بخلاف الفعل (ظن) فقد يأتى بمعنى اليقين أو
ما قاربه ، والحساب وانظن ليسا متقاربين فى الدلالة . وفى النوى هنا
تفطير لحالهم وبيان لخسرانهم ففيه تسلية للأمة حين ترى موفور زخرف
الدنيا فى أيدي الذين كفروا فما ذلك الا استدراج لهم (انما نعمل لهم
ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين) (١٣) .

* * *

وتم نمط آخر فى العربية هو دخول (لا) الناهية على مضارع رافع
ضمير متكلم وهو ما يعرف بأسلوب (لا أرينك ههنا) وقد جاء فى شعر
الناطقة الذيباني :

لا أعرفن ربربا حوزا مدلمعها مردفات على أعقاب أكوار

(١٢) ارشاد العقل السليم لابي السعود ١١٧/٢ (بتصرف) .

(١٣) ومثل هذه الآية الآيات رقم / ١٨٠ - ١٨٨ من التمسيرة

نفسهما .

وهو مما أقيم فيه السبب مقام السبب والأصل لا تكن هنا ، فأراك ،
وفى قول النابغة ماله لا تعتدوا على حصى النعمان ، فتذهب نساؤكم
وأراهن يبكين مردفات خلف الرجال (١٤) .

ولم يقع لى هذا النمط فى الذكر الحكيم على القراءات العشر ، وقد
قرأ الحسن والشعبي قوله تعالى : «ولا نكنتم شهادة الله أنا إذا نحن الآثمين»
(المائدة / ١٠٦) يحزم (نكنتم) على أن (لا) ناهية أى ينهان أنفسهما
عن كتمان الشهادة (١٥) .

ويبقى عليه عطف (جملة النهى) على جملة الجبر (لا نشترى)
التي هى جواب القسم عند من يمنع عطف الانشاء على الخبر .

* * *

وقد تانى (لا) فتكون ناهية على قراءة ونافبة على أخرى ، وذلك
كما فى قوله تعالى : «أنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن
أصحاب الجحيم » (البقرة / ١١٩) قرأ نافع ويعقوب يحزم (تسأل)
على النهى ، وقرأ الباقر من الثعشيرة على الرفع على أن (لا) نافية .

على قراءة الجمهور يكون الكلام خبرا والجملة إما أن تكون حالية
أو استثنائية فإن تكن حالية فهى كقوله (بشيرا ونذيرا) أى وغير
مسئول عن أصحاب الجحيم .

ولا بعد فى مجيء الحال جملة فعلية بعد حال مفرد فذلك غير
فيل .

وان تكن مستأنفة فإن ابن مسعود قد قرأ (ولن تسأل) وقرأ
أبى بن كعب (وما تسأل) وذلك يؤكد حملها على الاستئناف .

(١٤) المغنى للبيهقي ١/ ١٩٩ .

(١٥) البحر المحقق ٤/ ٤٤ - المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ٢٢
(مل / المغرب)

وفى الرفع تناسق بين الجمل السابقة عليها واللاحقة ، فلهذا
خبرية .

وعلى قراءة نافع ويعقوب فالنهي يراد به تهويل حال انسحاب الجحيم
أى أنهم فى خطر عظيم لا تسأل عنه (١٧) ومن سنة العرب أن تنهى عن
السؤال عن الشيء حين تريد الإبلاغ فى تهويله أو تخفيفه وتعظيمه ، ومن
ذلك ما رواه الشيخان من حديث عائشة فى صلاة النبى صلى الله
عليه وسلم : « ما كان يزيد فى رمضان ولا فى غيره ، على إحدى عشرة
ركعة يصلى أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ٠٠٠ » ، (١٧) .

فالكلام ظاهره النهى وباطنه التعظيم ، وعلى ذلك تكون (الواو) فى
الآية على قراءة نافع ويعقوب عاطفة جملة انشائية لفظاً خبرية معنى على
انشائية لفظاً ومعنى .

وجمهور أهل العلم على أن للنهى صيغة واحدة هى التى سبق بيانها
وذهب بعضهم الى أنه يلحق بها (اسم الفعل) الدال على معنى (لا تفعل)
نحو قوله (مه) فانه بمعنى (لا تفعل) وصيه بمعنى (لا تتكلم) (١٨)

(١٦) المبسوط لابن مهران ص ١٢١ ، إبراز لغاتى لابن شمامه
ص ٣٤٢ ، الحجة للفراسى ١٦٣/٢ ، ١٦٨ ، المنذر الوجيز لابن عصة
١/٣٤٣ - ٣٤٤ ، دلائل التراكيب ص ٢٧٧ .

(١٧) صحيح البخارى : التراويح - فضل من قام رمضان (فتح
البارى ٢٠٥/٤) وصحيح مسلم : المسافرين - صلاة الليل - ج =
٧٣٨/١٢٥ ج ١ ص ٥٠٩ .

(١٨) ارشاد الفحول للشوكانى ص ١٠٩ ، فواتح الرحموت

١/٣٩٥ .

ولكن الظاهر من دلالة (مه) انها هي (كف) وليس (لا تفعل) وان
يكن قولنا (لا تفعل) مآل (كف) ولازمه ، ومثله القول في (صه)
واذا ما كان « ابن جنى » قد ذكر أن أسماء الفعل على ضربين أحدهما
في الأمر والنهي والآخر في الخبر فانه في بيان الأول لم يتحدث عن
غير الأمر ، ولم يذكر شيئا من النهى وأول أسماء انفعال الطلبية بمعنى
الأمر (١٩) .

ومجمل القول أن الأعلى القول بأن للنهي صيغة واحدة ، فانه لم يقع
لى في البيان القرآنى صيغة أخرى للنهي وجميع ما كان فيه من أسماء
الفعل الطلبية أولها أهل العلم بمعنى الأمر كما مضى تبياناه .

انضرب الثاني من صورة معنى الامر والنهي

« الأسلوب »

هذا الضرب فيه ما يعرب عن معنى الامر أو النهي على غير استراحة الشاحصة فيما كان من الضرب الأول الآنف تبيينه ، وهو ما عرف بصيغة الامر أو النهي ، وفي العربية عامة وفي البيان القرآني خاصة أساليب عديدة يعرب بها عن معنى الامر أو النهي سواء كان ذلك مما يسبق النظم أصالة أو تبعا ، أو لم يسبق له فكانت إفادته له اشارة وهذا الضرب يستجمع رفاق دلالته من السياق : مقالا ومفاما ، وهو ما يمكن أن يسمى بالدلالة الاسلوبية أى من مجموع مكوناته المقالية والمقامية لا من عنصر من عناصره ، وغير خفى أن افادة الاسلوب معنى ما غير دلالة الصيغة التى هى عنصر من عناصره على ذلك المعنى جلاء وخفاء أو ضبطا وانفتاحا .

والأساليب المعربة عن معنى الامر أو النهي فى الذكر الحكيم جد كثيرة ، اذكر ما اذكرته البصيرة ، فان كان غير ما اذكر فانما هو الغفلة أو الخور .

(أولا) أسلوب الخبر المعرب عن معنى الامر والنهي :

اخبار الكتاب والسنة فى سياق التشريع انما يراد بها الطلب أمر أو نهيا والوجه فى هذا عند « السعد التفتازانى » ، أنه لما كان مدلول الخبر هو الحكم بثبوت مفهوم أو نفيه عنه فالمحكوم به فى خبر التشريع ان كان هو الحكم الشرعى مثل : « كتب عليكم الصيام » ، « وأحل الله البيع وحرم الربا » فلا يخفى أنه يفيد ثبوت الحكم الشرعى من غير أن يجعل مجازا عن الانشاء ، وان لم يكن كذلك فوجه إفادته المحكم الشرعى ان يجعل الاثبات مجازا عن الامر والتقى مجازا عن النهي ويفيد الحكم الشرعى بأبلغ وجه « (١) يريد « السعد » أن الأول لما كان صريحا فى

(١) التلويح على التوضيح للسعد التفتازانى ٢٨٧/١ .

افادة ما يراد من الأمر أو النهى من حكم بالوجوب أو الحرمة لم يكن
المصير الى تأويله بالانشاء بخلاف الآخر .

(١) (الخبر المعرب عن الأمر) :

جمهور البلاغين والمفسرين والأصوليين على أن الأمر قد يأتي في
صورة الخبر (٢) فيعرب عن معناه على نحو لا يكون لصيغة الأمر أن
تعرب عنه ، كما أنه يقام في مساق لا يكون لصيغة الأمر أن تقام فيه
فتناغى معه ومقتضيات اخراج الأمر في صورة الخبر في الذكر الحكيم
يجد كثيرة تتنوع بتنوع السياق ، فلكل موقع ما ليس للآخر :

من ذلك قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء
ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن أن كن يؤمن بالله واليوم
الآخر وببولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا أصلا ولهن مثل الذي
عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » (البقرة /
٢٢٨) . في مساق تبيان الأحكام المنظمة العلاقة بين الرجل وزوجه حال
المفاصلة التي قد تكون ضرورة لا تستقيم الحياة بدونها جاءت هذه
الآية ، وكان من قبلها قد بين ما هو الهدى في حال وقوع الرجل في
قبضة الايلاء من زوجه فجعل له أربعة أشهر يتربصها ، فان شاء أمضى
وأنفذ وان شاء فاه وراجع ، وهذا من فيض الرحمة بكل من الرجل

(٢) المفتاح للسكاكي / ١٥٥ ، المطول / ٢٤٦ ، الشباح لابن الناطم
/ ٩٢ ، شروح التلخيص ٢ / ٢٣٨ - ٣٤٠ ، الاشارة الى الايجاز / ٢٧ ،
الاطول ٨ / ٢٥٢ الكشاف ١ / ٣٧٠ ، ٢ / ٢١٦ ، ٢٢٥ المحرز الوجيز
لابن عثية ١ / ٦٤ ، ٢ / ٢٠٨ ، التبيان للعكبري ١ / ٩٥ ، ٢ / ٢٦١ ،
التحرير والتنوير ٢ / ٢٨٨ ، المحصول للرازي ١ / ٢ / ٥٠ - ٥٢ الموافقات
للشاطبي ٣ / ١٥٥ ، التوضيح لصدر الشريعة ١ / ١٨٦ .

وزوجه ، اذ جعل للرجل فسحة يؤوب فيها الى نفسه ، يدفع عنها الغضب ، فيعفو ، ولم يجعل ايلاء طلاقا على الفور ، وفي قوله « فان الله غفور رحيم » حيث بالغ له على أن يعفو ويفقر ، واذ جعل للمرأة نهاية لتعليقها ، فلا تكون كما كانت عليه في الجاعليه في مثل هذا ، اذ انها كانت تعلق لا أيما ولا ذات زوج (٣) وفي قوله « وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم » تهديد بالغ اذ الطلاق امانة في يد الرجل ، فليحذر المضارة فان الله سميع عليم .

في هذا المساق جاء البيان عما هو امانة المطلقة من تربص العدة واستبراء الرحم ، فهو عقيب البيان عما هو امانة الرجل من الطلاق .

« قال الحزالي : لما ذكر - سبحانه وتعالى - تربص الزوج في امر الطلاق الذي هو امانته ذكر تربص المرأة في امر العدة التي هي امانتها » (٤) فقال : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء .

ظاهرة العبارة اخبار بأن المطلقات يقع منهن تربص بأنفسهن ثلاثة قروء ، فان حمل المعنى على ظاهر البيان كان مناقضا لبعض ما هو واقع ، فكم من مطلقة حرة مدخول بها من ذوات القروء (٥) لا يكون منها ذنت التربص ، فكان في شاهد الحال قرينة صارمة عن حمل المعنى على ظاهر البيان الى معنى يتناسق مع واقع الحال وحكمة التشريع .

(٣) اسباب النزول للواحدى ص ٤٩ .

(٤) نظم الدرر للبقاعي ٢/٢٩٤ .

(٥) قيده بذلك لما يقضى به السياق فقوله (ثلاثة قروء) مخرج الكبيرة والصغيرة وذات الحمل ، والسياق القرآني « مخرج للتي لم تدخل بها والسنة مخرجة للامة » فالنص القرآني انما يضبط وجه المعنى فيه بمراجعة السياق القرآني كله ولما جاء في السنة الصحيحة أى مراجعة بيان الوحي كله . فان يعرضه يهذى الى الوجه الحق في بعض .

ذلك المعنى هو طلب وقوع التبرص منهن على نحر ما أخبر به ظاهر
النظم ، فكانه قيل : ليتبرص المطلقات بأنفسهن ثلاثة قروء ، وانما
عدل عما يقتضيه ظاهر الحال الى ما جاء عليه البيان تأكيداً لامرهن
بالتبرص واشعاراً بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة الى امثاله (٦) .

ويعلل التوكيد ببناء الفعل (يتبرصن) على المتبداً (المطلقات)
ونو قيل : ويتبرص المطلقات لم يكن بتلك التوكادة ، ووجه ذلك ما فيه
من تكرار الاسناد على جهة الخيرية أولاً ، وعلى جهة الماعظة ثانياً ، وكذلك
لما ذكر المبتدأ أولاً اشعر السامع بأن هناك حكماً عليه فلما ذكره كان
اوقع عنده من ذكر الحكم ابتداءً .

« ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من أنواع الالاحديث
قد قوى اسناده اليه ، واذا كان كذلك ، فاذا قنت : « عبد الله » فقد
اشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فاذا جئت بالحديث
فقلت مثلاً : « قام » ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له ،
وقدمت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول
المهيا له المطمئن اليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة ،
وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق » (٧) .

ولما كان ما أريد منهن أمراً عظيماً وذا شأن في حياتهن وحياة الأمة
كان الأنس اخراج طلبه منهن في صورة الخبر عني ، ولما جاءت العبارة
هن الفعل المأمور به بقوله (يتبرصن) دون قولنا (ينتظرن) ايماء الى
الحذر والاخذ بالتمهيد والاعراض عن التساهل والتفاهل في هذا حذراً من

(٦) ينظر : الكشف ١/٣٦٥ ، وقد تردد ذلك في غيره كالبيضاوى .
٢/٢١٠ (حاشية الشهاب) ، نظم الدرر ٣/٢٩٥ ، تفسير أبى السعود
١/٢٢٥ التحرير والتنوير ٢/٢٨٨ .
(٧) دلائل الاعجاز لعبد القاهر من ١٣٢ (ت / شاكر) .

التردى فى شرك الشهوة الى التعرض للرجال ، ففي التربص معنى ليس فى الانتظار ، ونذا جاء قوله (بأنفسهن) ففى ذكر الأئمة تهيجهن على التربص وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكف منه فيحمان على أن يتربصن وذلك أن أنفس النساء طوامح الى الرجال ، فأمرن أن يفعلن أنفسهن ويغلبنهن على الطموح ويجبرنهن على التربص (٨) على الرغم من أن التربص انما تقضى به الفطرة السوية ، فمن لم تحرص عليه فقد خالفت فطرتها السوية ، يضاف إليه أن ذلك لما كان أمانة فى يدها ، كما كان الطلاق أمانة فى يد الرجل ، قد يوقعه متلذظا به فى خلوة ، غدا يولج فى دعوتها وحثها على القيام بأوفاء بحق تلك الأمانة فأخرج الإبلان فى أمرها فى صورة الاخبار عنها .

(٨) الكشف ٣٦٥/١ .

يقول الأستاذ / سيد قطب رحمه الله : « لقد وقفت أمام هذا التعبير اللطيف التصوير لحالة نفسية دقيقة . ان المعنى الدهنى المنصود هو ان ينتظرن دون زواج جديد حتى تنقضى ثلاث حيضات أو حتى يظهرون منها ، ولكن التعبير القرآنى يلقي ظلالا أخرى بجانب ذلك المعنى الدهنى انه يلقي ظلال الرغبة الدافعة الى استئناف حياة زوجية جديدة . رغبة النفس التى تدعوهم الى التربص بها والامساك بزمامها مع التحزم والتوفز الذى يصاحب صورة التربص ، وهى حالة طبيعية تدفع اليها رغبة المرأة فى أن تثبت لنفسها ولغيرها أن اخفاقها فى حياة الزوجية لم يكن لعجز فيها أو نقص ، وانها قادرة على أن تجتذب رجلا آخر ، وأن تنشئ حياة جديدة . هذا الدافع لا يوجد بطبيعته فى نفس الرجل لأنه هو الذى طلق بينما يوجد بعنف فى نفس المرأة ، لأنها هى التى وقع عليها الطلاق ، وهكذا يصور القرآن الحالة النفسية من خلال التعبير ، كما يلحظ هذه الحالة ويحسب لها حسابا ، (فى ظلال القرآن ج ٢ ص ٢٣٩

ومن الباب نفسه قوله تعالى من بعد ذلك :

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير » (البقرة / ٢٣٤) .

فقوله (يتربصن) اعراب عن طلب التربص من أزواج الذين يتوفون ، فكانه قيل : يتربص أزواج الذين يتوفون منكم .

وجاء هذا الطلب في معرض الحديث عن عدة الأزواج ، وقد سبق تبين عدة المطلقات ، فعطف هنا عليه تبين عدة المتوفى عنهن أزواجهن ، وكان ظاهر السياق أن يقال : وأزواج الذين يتوفون يتربصن ، لكنه عدل عن ذلك إيماء إلى ما ذكرناه في الآية الآتية وإلى أن هذا التربص ينبغى أن يكون من زوج المتوفى فطرة وديانة ومروءة ، فذلك أدنى حقوق الزوج المتوفى عليها إذ عاشته ردحا من الدهر وأفضى إليها وأفضت إليه وكذلك إيماء إلى أن ذلك التربص أمر ميسر على النفس السوية حتى لكانه موافقة الفطرة ويسره واقع بنفسه لقوة الأسباب المقتضية وقوعه ، وكان التربص صفة كاشفة للتي تركها ذلك المتوفى ، فلا يكون لها أن تعمل على التخلي عنها ، وفي هذا من الإبلاغ في الحث على تحقيق ذلك التربص على النحو الأكمل ما فيه ، يضاف إليه ما فيه من تصوير شناعة ما يقع من بعض النفوس الضالة حين تتعرض للرجاز من قبل انقضائه هذه الوفاة .

ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » (البقرة / ٢٣٣) .

جاء في معرض تبين أحكام ما يقع بين الزوجين من مشاجرة

ومفصلة لتبيان ما يجب للواليد على ولديه حين تكون المفصلة (ب) تقرر في هذه الآية حقوق الوليد على والديه وحق كل والد منهما على الآخر .

جاء قوله (والوالدات يرضعن) أمرا بارضاعهن أولادهن حولين كاملين في صورة الاخبار عنهن ، الهابا لهن وتهيبجا وحذا - حتى لا يغرقن في حمأة الضيق والغضب مما وقع بهن من طلاف ، فينشسرن على ما تقضى به الفطرة السوية ، فيعرضن عن ارضاع أولادهن نكايه في الزوج .

وظاهر البيان يحتمل وجوها من المعنى : منها أن ذلك الارضاع حق عليها لوليدها ، وأنه حق لها على الوالد لا تحرم منه ، وإم يأت النص بما يصرح بأحدهما ، ولكنه أقام فيه ما يعرب عن الأعلى منهما ، وهو أنه حق عليها لوليدها إذا ما وفى الوالد ما عليه لها « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وحق لها إذا ما أرادت وقبات أجر مثليها من المرضعات فليس للزوج منعها ، وليس لها أن تطلب فوق أجر مثليها بدلالة قوله تعالى « لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة بولدها ولا

(٩٦) أشير بهذا الى أن قوله (والوالدات) عام اريته به خاص بدلالة السياق ، فليس هذا حكما في كل والدة بل فيمن طلقت ، وثم آراء عديدة في نوع الطلاق الذي يكون فيه اطلاق رجعى أم بدئونة ، وخلاف في حالها قبل انتهاء العدة وبعدها ومنهم من يذهب الى اختلاف دلالة الأمر الوارد في صورة الخبر من حيث الوجوب والندب ووفقا لحال الوالدة ، أثرت الاشارة ولم أبسط القول لأنى الى دراسة صورة الأمر وليس الى دلالاته .

راجع احكام القرآن للشافعى : جمع البيهقى ج ١ ص ٢٦٤
احكام القرآن للمكيه البراس ٢٦٩/١ وما بعدها ، احكام القرآن لابن العربي المالكي ٢٠٤/١ ، الكشاف ٢٧٠/١ ، أنوار التنزيل للبيضاوي ومعه نهاية الناض للشهاب ٣١٨/٢ ، المحرر الوجيز لامية طبة ٢٠٨/٢ ، فتح القدير للشه كاتم ٢٤٤/١ ، المحرر والتنوير ٤٢٩/٢ .

مولود له بولده » فالأعلى أن ذلك حق لها وحق عليها أيضا ، فكان البيان
الخبري عن الطلب الأمرى آنس بهذين المعنيين وفيه أيضا اعراب عن أن
ذلك الارضاع أقرب الى فطرة الأم والأب وأقرب الى عدالة التخلق
بالاسلام فلا تزر وازرة وزر أخرى ، فكانها ليست فى حاجة الى التصريح
بأمرها بالارضاع ان هى كانت على فطرتها ، فكان ذلك أولى بأن يخبر
عنه أنه يقع منهن تشريعا وفطرة ، ولثبوته ووجوبه عند ذوى الحجج
ديانة ومروية .

وفى ذلك أيضا دلالة على أن ذلك الفعل المراد والمخير عنه صورة
انما هو قريب ميسور تعين الفطرة عليه ، وان فى ذلك استقامة الحياة
وصلاحها وصلاح المطلقة نفسها ووليدها ، فاخراج الأمر هنا فى صورة
الخبر ذو دلالات كثيرة .

ومما زادها توكيدا بناء الفعل على الاسم بناء يعلى وجوب الوقوع
منهن الى درجة يقترب فيها التوكيد من التخصيص ، أو بدخل فيه حين
تتحقق شرائطه التى اشرت اليها من قبل .

ويندب الظاهر بن عاشور الى أن ذلك خبر أريد به التسريع وإتيان
حق الاستحقاق وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن ، لأنه قد
ذكر بعد أحكام المطلقات ولأنه عقب بقوله « وان أردتم أن تسترضعوا »
فإن الضمير شامل للآباء والإمهات على وجه التغليب . . . ، فلا دلالة
فى الآية على إيجاب ارضاع الولد على أمه ، ولكن على أن ذلك حق لها ،
وقد صرح بذلك فى سورة الطلاق بقوله : « وان تعامرتن فسترضعن له
أخرى » ولأنه عقب بقوله « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف »
وذلك أجر الرضاعة ، والزوجة فى العصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل
الرضاعة بل لأجل العصمة (١٠) .

والشيخ وإن لم يقل هنا بأن الخبر للأمر فإنه لا ينفي القول بمعنى الأمر في صورة الخبر وقد سبقنا الإشارة إليه في قوله تعالى « وانطلقتن يتربصن بأنفسهن » (البقرة / ٢٨٨) ولكنه يذهب الى ان ثم صارفات عن نقول بالأمر لليجاب على الرالدات من انهن مطلقا ومثلها لا يجب عليها ذلك ومن انه علقه بارادة الاسترضاح من كل من الرالد والوالدة ، فهو تشريع استحقاق لها لا عليها ، فان سلم له أنه ليس استحقاقا عليها بل لها فإنه ما يزال معنى الأمر باقيا لأنه يعرب عن أمر الرالد بان يجعلها مرضعة ان ارادت وان طلبت أجر مثلها ، وأهل العلم على ان الخبر هنا مقيد للأمر ولكن دلالاته تختلف باختلاف الأحوال فقد يكون واجبا على الزوجة وقد يكون حقا لها يلزم الزوج به وصرفه الى وجه واحد في كل الأحوال والملابسات غير حميد فان النص مفتوح الدلالة الطلبية المؤكدة يحرر السياق المقامى والملابسات وجها من وجوه دلالاته الطلبية فهو لا يخلق على كثرة الرد وهو مصلح كل زمان ومكان وحال .

* * *

ومما وقع تصوير الأمر في صورة الخير جد كثيرة في القرآن الكريم ، فكل تشريع في صورة اثبات دو في مآله الى الأمر بهذا التشريع ، لأنه ما يخبر به الا ارادة طلبه وإيقاعه والاحكام التشريعية قد تكون في صورة انبات وقد تكون في صورة نفي ولا ثالث ، فكان الخبر المراد به الأمر كثيرا كثرة لتشريعات المثبتة .

وقد يعدل القرآن الكريم عن الأمر بالشئ مباشرة الى الاخيار عن أن الله يأمر به كما في قوله تعالى :

« ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ، (النساء / ٥٨)

فدلالة قوله (أن الله يأمركم) على طلبه إيجاد ما أخبر أنه يأمر به ،
أدل من دلالة صيغة الأمر على ذلك الطلب كأن يقال أدوا الأمانات إلى
أهلها واحكموا بين الناس بالعدل .

فليست الآية هنا إلى مجرد الخير بل إلى الأمر الملائم الزاماً لا يستعمل
وجهاً آخر من الوجوه التي تحتلها صيغة الأمر من التسبب والارشاد
وعبر ذلك .

فإن ما أخبر أنه يأمر به إنما به قوام الخلافة في الأرض : الأمانة
والعدل ، فهما أساس كل خير وأساس كل طاعة لله ورسوله صلى الله
عليه وسلم ، فما من شيء فيه صلاح الفرد أو الأمة أو الكون مما شرعه الله
إلا وهو قائم على معنى الأمانة والعدل سواء في هذا علاقة العبد بربه
عز وعلا وعلاقة العبد بنفسه وعلاقة العبد بأخيه المسلم وعلاقة العبد
بغير مسلم سواء كان ذمياً أم معاهداً أم حربياً ، كل ذلك يقوم على الأمانة
والعدل . فهما روح كل علاقة أمر الله عز وعلا بها إيجاباً أو سلباً .

ولما كانا كذلك كان إخراجهما في صورة لا تحتل إلا دلالة الطلب
الالزامي الذي لا رخصة فيه أحق من إخراجهما في صورة يمكن حسابان
وجوه من الدلالة فيها أن إصابة وإن خطئنا ، فكان الإخراج في صورة
الإخبار بأن الله عز وعلا يأمر بذلك أدل على طلب الالتزام . وغير خفى أن
« في تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليل وإيراد الأمر
في صورة الإخبار من الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالة على
الاعتناء بشأنه ما لا مزيد عليه » (١١) .

وإن كانت هذه الآية قد نزلت عند فتح مكة ودخول النبي صلى الله
عليه وسلم الكعبة وما كان من قصة مفتاح الكعبة وطلب العباس بن

(١١) إرشاد العقل السليم إلى السعود ١/١٩٢ . وانظر معه التفسير

والتفسير المظهر ٥/٩١ .

عبد المطلب - رضى الله عنه - السدانة ، مما هو معروف (١٢) فان اهل العلم المحققين على « أنها عامة في جميع الناس ٠٠٠ تتناول الولاية فيما اليهم من الامانات في قسمة الاموال ورد المظلمات وعدس الحكومات وغيره وتتناولهم ومن دونهم من الناس في حفظ الدائع والتحرر في الشهادات وغير ذلك ، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات امانات لله تعالى » (١٣) .

ولما كان ما أمر به أمرا لازما جد عظيم الاثر في حياة الأمة وبفائنها قوية فردا وجماعا جاء قوله من بعد ذلك « أن الله نعمنا يعظكم به » تحريضا بانفا على سرعة وقوة الامتثال بما أمر والمتمسك به في كل شئون الحياة وقد أعرب عن عظيم التحريض على ذلك اصطفااء كلمة (يعظكم) وبناء العبارة على نحو يعدل عما قد يكون هو انظاهر ان ذلك نعم ما يعظكم الله به ، أما اصطفااء كلمة (يعظكم) ففيه تأليف للنفس لتقبل على ماأمرت به اقبال حب واقتناع فالوعظ تذكير فيما يرق له القلب كما يقول الخليل (١٤) وهو في أصله الى الرفق اقرب فان كان المقام اعراضا كان في الزجر ولتخويف ادخل وأما بناء العبارة فان تصدرها بأن المعربة عن وجه المعنى وتعليله والمغنية عن « الغاء العاطفة » « فأنب ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا » (١٥) وكان تقديم « اسم الجلالة » وبناء جملة « نعمنا يعظكم به » عليه اعرابا عن عظيم الثناء على ما يوعظون به ، فانه ثناء من الله عز وعلا ولذا كان اصطفااء اسم الجلالة

(١٢) ينظر أسباب النزول للواحدى ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(١٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٤/١٥٧ ؛ وانظر معه الكشف ١/٥٣٥

(١٤) المفردات للراغب (مادة / وعظ) ص ٥٢٧ ط مصطفى الحلبي

(١٥) دلائل الاعجاز ص ١٨٧ - مرافعي .

هنا وقد سبق ذكره في صدر الآية وفي هذا حث بالغ على الاقبال على القيام بما أمر به .

« والتناسق بين المأمور به من التكاليف وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وبين كون الله سبحانه (سميعاً بصيراً) مناسبة واضحة ولطيفة مما فانه يسمع ويصير قضايا العدل وقضايا الأمانة ، والعدل كذلك في حاجة الى الاستماع البصير وإلى حسن التقدير وإلى مراعاة اللابسات والظواهر ، وإلى التعمق فيما وراء اللابسات والظواهر ، وأخيراً فإن الأمر بهما يصدر عن السميع البصير بكل الأمور » (١٦) .

وجاء الاخبار عن الأمر بالشيء دون التصريح بصفة الأمر - أيضاً - في قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى » (النحل / ٩٠) والكلام فى العدول عن صيغة الأمر : اعدلوا واحسنوا وأنوا ، كاللزام فى التى قبلها من الاعراب عن وجوب الالتزام بما أخبر عن الأمر به .

والمأمور به هنا ثلاثة : عدل واحسان وإيتاء ذى القربى
الأول يمثل أدنى ما تستقيم به الحياة وما تحقق به سعادة الفرد والجماعة وعز الأمة .

والثانى : الاحسان يمثل الدرج الأعلى من مدرجة الفضل المنبئ على أساس العدل أولاً فيتجاوز مقام العدل الى مقام الفضل ثم الى ذروته (الاحسان) وفى القرن بينهما اعراب عن أن بعض شئون الحياة قد يعسر فيها الوقوف عند حد العدل فيكون الدخول فى حصى الفضل والاحسان أحوط ، وكأنها دعوة الى صاحب الحق أن يغفو عن بعض حقه الذى ينضى له العدل فالعدل يلزم به من يعطى نظيره والاحسان يقوم به من يكون الحق له

وليس من شأن القاضى بين اثنين أن يقضى بالاحسان لاحدهما دون رضى الآخر اذ يكون فيه ظلم له .

وايتاء ذى القربى من عطف الخاص على العام وهو يكون حيناً من باب العدل يؤتى حقه المفروض ، ويكون حيناً من باب الاحسان حين يؤتى فوق حقه ، وخص بالذكر على الرغم من دخوله فيما قبله من أنه « يكثر أن يغفل الناس عنه .. فقد تقرر فى نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتقاء شره ، كما تقرر فى نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعود التساهل فى حقوقه .. ولاجل ذلك صرفوا معظم احسانهم الى الأبعدين واجتلاب المحمدة وحسن الذكر بين الناس ، ولم يزل هذا الخلق متفشيًا فى الناس حتى فى الإسلام الى الآن ولا يكثرئون بالأقربين » (١٧) .



من كل ما مضى تبين لنا أن العدول عن صيغة الأمر فى الدلالة على طلب ما لم يكن حاصلًا وقت الطلب الى صيغة الخبر يراد به الى معان لا يكون لها بصيغة الأمر ما يكون لها بصيغة الخبر .

من ذلك أن فى تصوير المطلوب وقوعه فى صورة المخبر عنه اعلاما للمطلوب منه أن ذلك المطلوب إنما هو محبوب للطالب ، وأن به استقامة الحياة وصلاحها وفى تخلفه افسادها ، وفى ذلك الاعلام حث بالغ على ايقاع المطلوب على النحو المحبوب .

ومن البين أن هذه الصورة تكثر فى الذكر الحكيم فيما يكون فيه صلاح الأمور وصلاح قومه ، وانها تكون غالبًا حين يكون المطلوب منه على قدر طيب بفقده قدر الطالب وفقه وجوب تحقيق ما أخبر به سريرة ، فكسر مع من بدرج ذى مقام من مقامات الطاعة والقرب :

وفى اصطفاء هذه الصورة - أيضا - دلالة على التصدد الى المسارعة
فى تحصيل المطلوب أو القصد الى المبالغة فى الطلب نفسه أو القصد الى
مدح المطلوب منه وأنه ممن يسارع فى الامتثال ، فهو جدير بأن يخبر
عنه لا أن يطلب منه ، وفيه دلالة على أن ما يطلب أمر قريب الوقوع
أو مما تستدعيه الفطرة وتعين عليه الجبلة حتى لكأن ذلك المطلوب واقع
بنفسه لقوة الأسباب المقتضية وقوعه أو المتأخذة فى وقوعه ، وأنه مما ثبت
ووجب عند ذوى الحجة ديانة ومرؤة ، فلا يتخلف إيقاعه الا عند من
ليس منهم .

تلك بعض ما يقام فيه تصوير الأمر فى صورة الخبر أما ما ذهب اليه
بعض البلاغيين من أن فى هذا التصوير اعرابا عن التفاؤل أو الاحتراز
عن صورة الأمر أو اظهار المتكلم حرصه على وقوع ما يطلب لأنه اذا عظمت
رغبته فى حصول أمر يكثر تصويره ذلك الأمر فرما يخيل له كالأمر الى ذلك
الطالب أنه حاصل فيخبر عنه (١٨) فانه مما لا يليق قوله فى أمر الله
عز وجل عباداه ، وان جاز قوله فيما يقع من الخلق ويحكمه القرآن عنهم .

* * *

(ب) (الخبر العربى عن النهى) :

جمهور أهل العلم على أن الخبر المنفى قد يرد فى سياق فيفيد النهى
عما دخلت عليه أداة النفى أو لازم ما دخلت عليه ، فلا يكون النفى على
ظاهره (١٩) مثلما كان الخبر المثبت مفيدا لأمر بمضامونه فى بعض

(١٨) ينظر المطول / ٢٤٦ شروح التلخيص ٢/ ٣٨ - ٣٣٩ . انصباح
لابن الناطم ٩٢ - ٩٣ . الطراز للعلوى ٣/ ٣٩٤ .
(١٩) المفتاح / ١٥٥ ، انصباح / ٦٩ ، المطول / ٣٦٢ . ٧١ .
الحجة لأبى على الفارسي ٢/ ٢٥١ - ٢٥٢ . ارشاد العقل السليم ١/ ٢٢٣ .

المسافات ، وذكرنا ما أشار اليه السعد التفتازاني من وجه الدلالة بهذا .

ومما كان انخبر فيه معربا على النهى قوله تعالى : « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبوالدين احسانا وذو القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون * واذا أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم اقررتم وأنتم تشهدون ، (البقرة / ٨٣ - ٨٤) » .

لما كان قوله « واذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل » معربا عن أن ذلك الميثاق انما هو تكاليف مضمنة أمرا أو نهيا ، وكان ما بعده تفصيلا لذلك الميثاق كان قوله (لا تعبدون) نفيا معربا عن معنى النهى عن عبادة غير الله الدال على وجوب اختصاص الله بالعبادة .

ولما كانت هذه الآية فى مساق تعداد مقابح اسلاف اليهود وما وقع منهم فى عهد موسى عليه السلام ايماء الى ان ذريتهم من بعدهم كذلك كان اخراج العبارة عن نهيمهم عن عبادة غير الله فى صورة الخبر ادل على عظيم عنادهم وبعدهم عن طاعة الله . وكان فيه دلالة على ان هذا النهى قد بولغ فى طلبه منهم وأعرب لهم عن عظيم ادميته وجليل محبة الله عز وعلا طاعته فيه ، وعلى الرغم من ذلك فانهم ما أطاعوا الله فيما أبان لهم عن حبه أن يطيعوا فيه ، فأخرج النهى فى صورة خس ايماء الى أنه من حقه ألا يكون منهم فيخبر به عنهم والى ما أشرت الىه من قبل .

وفى هذا اعراب للذين آمنوا عما هو جدير ببنى اسرائيل الذين ميهيم من قطع الطمع فى ايمانهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم « افتطمعون أن يؤمنوا لكم » فان اسلافهم قد قست قلوبهم ولم يستجيبوا كما ابلى الله عز وعلا فى طلبه منهم . ومن كان كذلك فليس اهلا لأن تطمعوا فى خلفه ان يؤمن بدينكم ويؤيد القول بدلالة (لا تعبدون)

قراءة « ابي بن كعب وابن مسعود » : (لاتعبدوا) (٢٠) وكذلك عطف
قوله « وقولوا للناس حسنا » عليه .

وصرح البلاغيون بان الوصل كان لان الجملتين اتفقتا فى المعنى
واختلفتا فى اللفظ فهو من عطف الاسر على النهى (٢١) .

وكذلك قوله فى الآية من بعدها « لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون
انفسكم من دياركم » فانه خبر أريد به النهى عن سفك الدم والاخراج
من الدار ، وغير خفى ان المعنى ليس نهيا عن ان يسفك المرء دم نفسه
او يخرجها من دارها فذلك لا يقع من عاقل فينهى عنه ، بل المنهى على
نهى المرء عن ان يسفك دم أخيه وأن يخرججه من بيته ، وجعل فعل ذلك
فى أخيه فعله فى نفسه ، « بناء على جريان كل واحد منهم مجرى
انفسهم لما بينهم من الاتصال القوى نسبا ودينا للمباغة فى الحمل على
مراعاة حقوق الميثاق بتصوير النهى عنه بصورة تكررها كل نفس
وتنفرد عنها كل طبيعة » (٢٢) فالشأن فى أى مجتمع مؤمن فى أى رسالة
سماوية انه قائم على أن ما هو حق فرد من أفرادها إنما هو فى ماله حق
الآخرين والمغايرة بين حقوق أفرادها مغايرة ظاهرة تمتهى الى وحدة
غائية ، فسادك دم أخيه سادك دم نفسه ومخرج أخيه من داره مخرج
نفسه من دارها .

وفى هذا اعراب لهذه الامة عن أنه اذا ما كان هذا مطلوبا مرغوبا
فيه من بنى اسرائيل فى زمان موسى فكيف هو فيكم فى زمان النبى
الخاتم الاعظم صلى الله عليه وسلم ؟ .

(٢٩) الكشف ٢٩٣/١ ، التحرر الوجيز لابن عطية ٧٧/٢

(٢١) المفتاح للسكاكى / ١٢٤ ، المصباح لابن الفاضل ٦٩/ المطول /

٢٦٢ ، الاشارات والتنبيهات لمحمد بن على الجرجانى / ١٢٨ .

(٢٢) ارشاد العقل السليم / ١٢٤ .

وهذا الوجه أنس بالمقام من الذهاب الى أن قوله « لا تسفكوا »
و « لا تخرجوا » من إقامة المسبب مقام السبب ، فيكون نهيا عن
الوقوع فيما يفضى الى سفك دمهم قصاصا ، وإخراجهم من ديارهم فيكون
مآل النهي لا تسفكوا دم غيركم فيسفك دمكم ، ولا تخرجوا غيركم من
ديارهم فتخرجوا من دياركم . والنهي عن المسبب وإرادة السبب وإن
كان نهجا في العربية والذكر الحكيم فإن السياق هنا أنس بالوجه
الأول لأعرابه عما يتبني أن يكون عليه المجتمع المؤمن في أى رسالة
سماوية كما سبق ذكره

وجاء هذا في سياق مذمة بنى إسرائيل تبيانا لأمة الاسلام أن
أولئك الخالفين لهم من اليهود على شاكلتهم من الإبلاغ فى العناد
والعصيان ، فإذا كانوا قد عصوا الله فيما نهاهم من سفك دماء بعضهم
وأخراج اخوانهم من ديارهم فتتظعمون أن يعصموا دماءكم ويحرصوا على
بقائكم فى دياركم ؟ ١٩ .

❦ ومن هذا الباب ما سبق أن تناولته فى أعراب الخبر على الأمر
قوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن
يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن أن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن
أحق بردهن فى ذلك أن أرادوا أصلا ٠٠٠ « الآية (البقرة / ٢٢٨) .
عطف قوله (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) على قوله
(يتربصن) فهو مثله خبر أريد به الطلب فكان من عطف نهى على أمر
فكانه قيل « ليتربصن ولا يكتمن » فكما أكد الأمر بالتربص فأخرجه
فى صورة الخير أكد النهى عن كتمان ما خلق الله فى أرحامهن من
حيض أو ولد ، فأخرجه فى صورة الخير ، إذ الغاية فى الإبلاغ فى
دعوتهم الى الحرص على إيفاء الرجل حقه فى الرجعة . فإن حسن تربصها
بنفسها ثلاثة قروء ، فيه إيفاء الرجل حقه فى الرجعة زمان العدة ، وفى
الإعلان بما خلق الله فى أرحامهن من حيض أو ولد ، كذلك إيفاء الرجل

حقه فلا فراط ولا تفريط من بعد أن جعل للإيلاء منهجاً : تربص
أربعة أشهر فاوفى لكل حقه .

ولما كانت انجملتان (يتربصن) و (لا يحل لهن) مسوقتين الى الاعراب عن
فريضة العدل من الزوجة فيما للرجل من حق زمن العدة ، جاء التهديد
البالغ « ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر » ففي ذلك الشرط من الدلالة
ما يعصم نفس المرأة عن الجنوح الى الانتقام والمعاقبة الجائرة . فذلك
شرط الى التهديد لا الى التقييد ، فكان « على طريقة المجازالرسائل التمثيلي ،
كما يستعمل الخبر في التحسر والتهديد ، «لأنه لا معنى لتقييد نفى
الحمل بكونهن مؤمنات » وان كن كذلك في نفس الامر لان الكوافر
لا يمتثلن لحكم الحلال والحرام الاسلامي ، وانما المعنى أنهن ان كنمن ،
فهن لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، اذ ليس من شأن المؤمنات هذا
الكتمان ، وجيء في هذا الشرط بان ، لأنها أصل أدوات الشرط ،
ما لم يكن هناك مقصد لتحقيق حصول الشرط فبوتى باذا ، فإذا
كان الشرط مفروضاً فرضاً لا قصد لتحقيقه ولا لعدمه جيء بان ، وليس
لان هنا شيء من معنى الشك في حصول الشرط ولا تفريطاً بإيمانهن
منزلة المشكوك ، لأنه لا يستقيم ، (٢٣) .

وفي اصطفاء قوله (لا يحل لهن) للاعراب عن النهي انباء بأن
ذلك مما لا يحتمل التوقف في دلالة على التحريم القاطع وان الحكم
فيه مبصوم من احتمال الوجوه التي يمكن حسابها في صيغة النهي
الصريح ، فقطيعة الدلالة في (لا يحل) اليق بالسياق هنا من ظنية
الدلالة التي تكون حيناً في صيغة (لا تفعل) فان المقام للاعراب عما به
استقامة حياة الامة في علائق الزوجين حين يكون شقاقاً كيلا يستحيل
الشقاق الى عداء يرتفع فيه المردة ، فتفسد حياة الامة .

والقرآن يعرب عما تقوم عليه الحياة في حال التوافق بين أفرادها
مثلاً يعرب عما تقوم عليه في حال الوفاق ، فانهما معا فطرة لا تخلو
منهما حياة ، وحيث جاء نفى الحل في القرآن فمال المعنى الى الابلاغ
في النهي عما نفى حله .

❖ وما سبق ذكره في الخبر المعرب عن الامر ، وفيه ما يعرب
بالخبر عن النهي قوله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كامين
لمن إراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ،
لا تكلف نفس الا وسعها ، لا تضار والدة يولدها ولا مولود له بولده ،
وعلى الوارث مثل ذلك ٠٠٠ الآية (البقرة / ٢٣٣) » .

هو في مساق ما جاءت له الآيات الآنف ذكرها من تبيان الهدى فيما
يقع من مفاصلة بين الزوجين وما لكل على الآخرة ، فكان في صدر الآية
تبيان حق الوليد على امه وابيه مضمنا تبيان حق كل من الوالدين في
هذا ثم جاء قوله (لا تكلف نفس الا وسعها) في صيغة خبر يراد به
النهي عن أن يكلف احدهما الآخر ما ليس في وسعه ، فالزوج منهى عن
ان يكلف الام ما ليس في وسعها فتلزم بالارضاع ولا تعطى حها . وهي
منهية عن ان تكلف الاب ما ليس في وسعه فتمتنع من الارضاع أو
تطلب فوق ما تستحق ، فهو تشريع ينهى عن التكليف بما لا يطاق في
شئتي شئون للحياة عامة وفي هذا المقام خاصة ، فهو تفسير لقوله
(بالمعروف) .

فان جعلناه تعليلاً له كان جملة خيرية لفظاً ومعنى أي وعلى المولود له
رزقهن وكسوتهن بالمعروف لأنه لا تكلف نفس الا وسعها ، وفي الزوجين
ابلاغ فانه يفهم بدلالة الإشارة انه اذا ما كان عملة ايجاب رزقهن
وكسوتهن بالمعروف انه نقرر عدم التكليف الا بما يطاق فذلك التكليف
حما لا يجوز وكأنه مسلمة يعمل بها ، فالوجهان وان اختلفا مسكنا فانهما
يتلاقيان غاية .

وقوله (لا تضار والدته بولدها ولا مولود له بولده) فيه تصريح بما فهم تضمنا مما قبله ، وهو تفصيل له وتقرير كما لا يخفى ، وفي قوله (لا تضار) وجوه من الأداء ، فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي برواية قتيبه برفع الراء من تضار وقرأ الباقيون بالنصب .

النصب على ان (لا) ناهيه والفعل مجزوم ثم فتحت الراء لالتقاء الساكنين (لا تعض زيدا) بفتح الضاد ، لان المدغم ساكن فالفتحة للتخلص واختيرت لانها أخف الحركات . وقراءة الرفع على ان (لا) نافية فهو خبر منفى في معنى النهى (٢٤) فقرأه الفتح تفسير لمعنى الرفع في الأخرى والقراءات يفسر بعضها بعضها ، واختلاف القراءتين في الصورة آنس باختلاف أحوال الأزواج ، فحينما يكون الخلاف بين الزوجين يسيرا فتكون صورة النهى الصريح في قراءة الفتح آنس بحالهما وحينما يكون الخلاف بالغا فتكون صورة النهى المعرب عنه الخير آنس بحالهما في الإبلاغ في نهيهما عن المضادة .

❁ ومما هو ظاهر في الأعراب عن النهى بصورة الخبر المتفى قوله تعالى : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد امتقوا ، واتقوا يا أولى الألباب » (البقرة / ١٩٧) .

جاءت الآية في سياق تبيان الهدى في شعيرة الحج فنص على زمنه ليتخذ العباد أهبة القيام بما هو رئيس في تحقيق صحته وقبوله ، ثم أعلن أن من فرض الحج وعزم عليه في ذلك الزمن كان عليه أن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل ، وهي ثلاثة أمور يرمز بها إلى كل ما فيه مفسدة لثمرة الحج من إبلاغ التجرد من الأغيار إلى الله عز وعل ، فمن اعتصم

(٢٤) الحجة لابي على الفارسي ٢/٢٥١ - ٢٥٢ .
التبيان في اعراب القرآن للعكبري ١/٩٧ .

مما هو من باب الرفث والفسوق والجدال ، وأقدم على فعل الخيرات
فقد فعل ما به تقبل الصالحات •

ولما كان السياق للتطهير من كل ما فيه اشتغال بالاغيار عن الله
عز وعلا جاء النهى عن تلك المفسدات فى صورة نهى لها ، ففى هذا
الاخراج البيانى ابلاغ فى الحث على القيام بحق ذلك وأن مقتضى الفطرة
ابرار العبد تلك المهلكات فيما لا يكون منه لا فيما ينهى عنه حتى يكون
عند حسن ما أخبر عنه لا عند حد ما كلف به •

وفقه دلالة الخبر المنفى فى الآية على النهى حاضرة فى فهم السلف ،
وذلك ما تراه من اعتراض بعضهم على « ابن عباس » حين انشد بيتا وعو
محرم فيه ذكر الجماع فقبل له : ترفث وانت محرم ؟ فقال انما
الرفث ما كان عند النساء (٢٥) • فدل على انهم فهموا النهى من النهى
فى (فلا رفث) و « ابن عباس » لم ينقض الفهم ولكنه قيد بالحكم بعد
ان فهموا أنه مطلق •

وفى اداء قوله « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال » وجوه •

قرأ ابن كثير وابو عمرو ويعقوب بالرفع فى (فلا رفث ولا فسوق)
مع التنوين و (ولا جدال) بالنصب •

وقرأ ابو جعفر بالرفع والتنوين فى الثلاثة •

وقرأ الباكون من العشرة بالنصب فى الثلاثة (٢٦) •

اما قراءة ابن كثير وابو عمرو ويعقوب بالتفريق بين (لا رفث
ولا فسوق) وبين (لاجدال) فهى على أن (لا) بمعنى « ليس » •

(٢٥) الحجة لأبى على الفارسى ٢/٢١٩ - ٢٢٠ ، والمحذر الوجيز لابن
الوجيز لابن عضية ٢/١٢٢ •

(٢٦) المبسوط لابن مهران ص ١٢٩ ، الحجة لأبى على ٢/٢١٨ -

عالمعنى لا يكون رفث ولا فسوق فهو منهى عنه فى صورة الخبر المنفى ، فلا يكون النظم فيهما اخبارا بانتفائهما بل هو الى النهى عن وقوعها . وقوله (لا جدال) (لا) فيه نافية للجنس والخبر قوله (فى الحج) والنظم فيه للاخبار بانتفائه ، فهو جدال خاص بما كان من قريش قبل نزول الآية ، اذ كانت تقف بالمشعر الحرام خلافا لسائر العرب فلما نزلت ارتفع الجدل أى الخلاف فى هذا فكان قوله (ولا جدال فى الحج) اخبارا بذلك الانتفاء (٢٧) وتكون «الواو» فى «ولا جدال فى الحج» أما استثنائية أو عاطفة خبرية لفظا ومعنى على خبرية لفظا انشائية معنى عند من لا يقول بمنع العطف بين الانشاء والخبر . وفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كبوم ولدته أمه » ، (٢٨) اعراب عن وجه الدلالة فى هذه القراءة فانه قد اشترط فى الحديث عدم الرفث وعدم الفسوق ولم يذكر الجدل مما يدل ظاهره على أن الجدل ليس مناط النهى فى الآية بل هو مخبر بارتفاعه بعد نزول الآية فهو الى جدال خاص كان من قريش .

وأن ذكر ان « الطيبى » جعل عدم ذكره فى الحديث من قبيل الاكتفاء (٢٩) .

(٢٧) الكشف ٣٤٧/١ ، البيان فى غريب اعراب القرآن لابن الانبارى ١٤٦/١ .

(٢٨) التبيان للعبرى ٨٦/١ ، ابراز المعانى لابن شامة ص ٣٥٩ .

(٢٨) البخارى : الحج - فضل الحج المبرور

(٢٩) فتح البارى ٢٩٩/٣ (ط سنة ١٤٠٢ دار احياء التراث العربى

بيروت - مصورة عن ط سنة ١٣٤٨ القاهرة .

وأما قراءة الرفع فى الثلاثة أو النصب فى الثلاثة فالنظم فيهما نفى
أريد به النهى وأن اختلف نوع (لا) فيهما ، ففي الرفع (لا) بمعنى
(ليس) وفى النصب (لا) نافية للجنس ، وقوله « فى الحج ، خبر فى
القراءتين » .

✽ ومن هذا الضرب قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن
يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم
أصحاب الجحيم » (التوبة / ١١٣) .

يقضى السياق انعام لسورة التوبة والبراءة من أهل الشرك والنفاق
والفاصلة بينهم أن يكون النفي فى هذه الآية على غير ظاهره ، أى ليس
اخباراً بأن ذلك لا يكون على نحو ما هو ظاهر فى قوله تعالى : « وما
كان لنفس أن تموت الا بإذن الله كتاباً مؤجلاً » (آل عمران / ١٤٥)
وقوله تعالى : « ما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هديهم » (التوبة /
١١٥) .

بل هو مصروف عن ذلك الى معنى النهى عن ايقاع الفعل الواقع فى
حيز النفي فهو نهى للنبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا عن الاستغفار
للمشركين ، فكأنه قيل : لا تستغفروا أنت ومن معك من الذين آمنوا
للمشركين ولو كانوا أولى قرى .

روى البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب
الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله
بن أبى أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفروا لك ما لم أنه
عنه فنزلت : ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو
كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٣٠) .
فقوله (ما لم أنه عنه) موضح عن أن قوله (ما كان للنبي) نهى بالغ
عن الاستغفار للمشركين .

(٣٠) البخارى : التفسير - سورة التوبة (فتح البارى ٢٧٤/٨) -

❦ ومن هذا الباب قوله تعالى « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما » (الاحزاب / ٥٣) .

لما كان السياق العام للمعنى في سورة « الاحزاب » ، إنما هو التشريف للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومن التشريف له النهي عن الإيذاء العام ومنه البقاء في بيته ودخوله إلا بأذنه ، اتبع ذلك بالنهي عن أمر أشد إيذاء له صلى الله عليه وسلم : عن نكاح أزواجه من بعده وفي أرداف النهي عن الدخول بغير إذن والمكث بالنهي عن نكاح أزواجه ترق في الهدى والتأديب للأمة ، ولما كان الأول أدنى إيذاء والآخر أعظم وأكبر كان الأول نهيا صريحا والآخر نهيا في صورة نفى (ما كان لكم) ففي هذا التركيب دلالة على الحظر المؤكد ، فادخال النفي على (كان) والاتيان باللام فيه اعراب عن ان ذلك لا يكون في منطق المنطوق ، وان ذلك مما لا يحتاج أولو النهي التصريح فيه بنهيهم عنه ، اذ هم معرضون عنه جبلة ، وفي اصطفاء وصف الرسالة في قوله (تؤذوا رسول الله) في مقابل اصطفاء وصف النبوة في الآية السابقة (لا تدخلوا بيوت النبي) اعراب عن أن الاعتصام من التردى في تلك المرفضة إنما هو شكر عملي مستحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قام به من تبليغ الرسالة ، فحقه الا يؤذى في جميع شأنه ، وفي أزواجه خاصة ، ولذا كان التأكيد الأعظم البادى من قوله (أبدا) وقوله (ان ذلكم كان عند الله عظيما) بكل ما فيه من عناصر التوكيد افرادا وتركيبا ، وفي اصطفاء وصف النبوة في قوله (لا تدخلوا بيوت النبي) اعراب عن أن ذلك الفعل المنهى عنه وهو الدخول بغير إذن فيه تشويش على الفهم بحسن التلقى ، وان من حقه ، بل من حق الدعوة والأمة ألا يشغل عن القيام بحق تلقي الأنبياء عن الله رب العالمين .

والنظر في هذا النمط من النهي البادى في النفي الداحل على فعل الكون ودخول اللام على الاسم المنهى عن الفعل أو على الفعل المنهى عنه يهدي إلى أن ذلك فيجسسا كان المنهى عنه ذو خطر بالغ إذا لم ينته

عنه ، فكان احق بالابلاغ في الزجر عنه والدفع والنهي عن التردى فيه .

واخراج النهي في صورة الخبر المنفي عموما في ابلاغ في النهي عن ذلك المنفي ، بل نأبأ الحسن الحارثي « ت ٦٣٧ » ، فيذهب الى أن النهي في صورة النفي فيه مناقضة تهدم لا مخالفة تبعد صاحبها عن مقام من مقامات الطاعة . يقول في آية « الحج » الآنف ذكرها : « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » : « وفي وروده نفيا لا نهيا اعلام بأنه مناقض لحال « الحج » حين نفي ، لأن شأن ما يناقض أن ينفي . وشأن ما لا يناقض ويخالف أن ينهى عنه ، كما قال فيما هو قابل للجدال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » (المائدة / ٤٦)

وبين خطاب النهي والنفي فرت في الأحكام الشرعية ينبنى الفقه في الأحكام على تحقيقه في تأصيلها والتفريع عليها ، (٣١) .

ومن خلال التبصر في كثير من المنهيات الآتية في صورة نفي بدا لي أن تلك المنهيات ذات خطر عظيم في الأمة فردا وجماعة اما لذاتها أو لمقامها وملابساتها ، بل ان صورة النفي المعرب عن النهي لتختلف باختلاف منزلة المنهى عنه ، فقوله ما كان كذا ليفعل أو ما كان له أن يفعل ، غير قوله (لا يحل لك) وغير دخول (لا) النافية على الفعل المراد النهي عنه ، غير دخول (لا) النفية على الاسم المراد النهي عن ايقعه . فهي أنماط تختلف باختلاف المنهى عنه في ذاته أو في سياقه النظمي أو المقامي المشتمل على أحوال من ينهى وزمان النهي ومكانه والأحوال المكتنفة ذلك كله .

واذا ما كان « الحارثي » ذاهبا الى ما رأيت من دلالة النفي على الابلاغ في النهي عما فيه مناقضة تهدم وكان جمهور العلماء على القول بخروج النهي في صورة الخبر فان « أبانكر ابن العربي الفقيه المالكي » (ت ٥٤٣) وأبنا القاسم السهيلي (ت ٥٨١) يذهبان الى أن الخبر في بيان الكتاب

والسنة خصّة نوعان : خبر وجردى ، أى خبر عن واقع موجود من قبل نزول القرآن وورود السنة . وخبر تشريعى لا يراد به الاعلان بوقوع شيء بل يراد به ان كان اثباتا الاخبار بتشريع وجوده ممن أسندناه وإن كان نفيا الاخبار بتشريع الامتناع عنه ممن أسند اليه .

والآيات التى قيل أنها خبر أريد به الامر فى الاثبات أو النفى فى النفى انما هى من قبيل الخبر التشريعى أى الخبر عن حكم الشرع ، وما استقر فيه وثبت فى الديانة التى نحن مأمورون بها على الجملة ، والخبر التشريعى لا يلزم عليه الكذب ان لم يتحقق فى الاثبات أو ان تحقق فى النفى ، كما يذهب اليه القائلون بأنه خبر أريد به الأمر ، ولا يفرقون بين الخبر الوجودى والخبر التشريعى ، بينما التفريق بينهما فى بيان الشريعة كتابا وسنة من الحق ، ومن ثم كان تخلف الخبر الشرعى أمرا مشهورا فكم من مطلقة أو متوفى عنها زوجها لا تتربص بنفسها مقدار العدة ، وكم من حاج يرفث ويفسق ويجادل ، وذلك كله معصية ممن أخبر عنه تشريعا وليس كذبا ، فان تخلف الخبر الوجودى كذب وتخلف الخبر التشريعى معصية (٣٢) .

والنظر فيما ذهب اليه « ابن العربى » و « السهيلي » وما ذهب اليه الجمهور فى هذا يهتدى الى أن الخلاف بينهما قريب ، فان الامام لا يتكران أن مآل الخبر التشريعى الأمر بما كان منه فى سياق الاثبات والنهى عما كان منه فى سياق النفى ، فانها لما كانت اخبارا عما استقر فى الشريعة ونبت فى الديانة التى نحن مأمورون بها على الجملة ، كنا مأمورين بتلك الأفعال ، وان لم تكن على صيغ الأمر والنهى فى المقال كما يقول السهيلي .

(٣٢) ينظر : أحكام القرآن لابن العربى ١/١٣٤ ، ١٨٦ . ونتائج الفكر فى النحو للسهيلي ت/ الدكتور محمد البنا ص ١٤٧ (ط / دار الرياض) وعروس الأفراح للسبكي (شروح التلاخيص) ٢/ ٣٤٠ ، وبدائع الفوائد لابن القيم ١/ ١٠٣ - ١٠٤ .

فان قلنا ان ما عليه الامامان من قبيل الاخبار التي لا يراد فائدتها بل
لازم الفائدة فهو عند المحققين من علماء البيان من قبيل الكناية المركبة
أو التعريض المركب اماما عليه الجمهور فهو مما يسمى بانجار المرسل
المركب وقد بحث فيه بعض المحققين (٣٣) .

(٣٣) ينظر : المطول / ٣٨٠ ، الأطول / ٢٥٢/١ . شرح المصام
للسمرقندية وحاشية حفيده والصبان عليه ص ٧٧ وما بعدها (ط سة
١٢٨٩ - القاهرة) والرسالة البيانية وتقرير الانبأى عليها ص ٤٤١
وما بعدها .

(ثانيا) اسلوب الاستفهام العرب عن معنى الأمر أو النهي
(١) (الاستفهام العرب عن الأمر) :

غير خفى أن كلا من الاستفهام والأمر من باب طلب إيجاد الممكن غير الحاصل عند الطالب ، إلا أن محل الإيجاد فى كل منهما مختلف كما أن لكل صيغة تدل عليه ، حصول صورة الشيء فى الذهن أن طلب حصول مدخولها الممكن أو مفاده خارج الذهن ، فيؤتى استنوب الاستفهام حينذاك ما تؤتیه صيغة الأمر من دلالة على حقيقة معنى الأمر ، بل وزيادة عليه أحيانا كثيرة ، وجمهور البلاغين والمفسرين على ذلك (١) .

وهذا ظاهر فى دلالة دخول (هل) على جملة اسمية ، ووجه ذلك أنه لما كانت (هل) مختصة بالتصديق ، وكانت مخصصة الفعل المضارع بالاستقبال كان لها مزيد اختصاص بالاشياء التى دلالتها على الزمان أظهر وأجلى ، فاختصاص (هل) بالافعال أقوى من اختصاص غيرها بها ، ودخولها على الفعل أولى من دخولها على غيره ، وإذا قبح عندهم (هل زيدا ضربت) فإذا عدل بها عن الدخول على الفعل عدولا غير فبيح ، بالأى يكون فى حيزها فعل الى الدخول على جملة اسمية مسدرا وعجزا فان ذلك العدول يفيد الاعتناء بالعدول إليه ، لأنه يظهر ما سيتجدد ، وهو مضمون الفعل فى صورة الثابت ، وهو الجملة الاسمية ، وهذا الاظهار أدل على كمال العناية بحصول المطلوب من إثباته على أصله ، ذلك أن الطالب للشيء اذا كثرت رغبته فيه عبر عنه بما يقتضى ثبوته لاظهار أن من شأنه أن يكون حاصلا ، وأن على المطلوب منه ذلك أن يعمل على تحقيقه والاسراع فى ذلك .

(١) معانى القرآن للفراء ٢١٢/١ ، مجالس ثعلب ٥٨٨/٢ المطبول ٢٣١/ ، المصباح ٨٤/ ، الكشف ١١٢/٢ المحرر الوجيز ١٨٥/٥ ، التبيان للعكبرى ١٢٩/١ ، البيان لأبي الأنباري ١٩٦/١ البرهان للزركشى ٣٣٩/٢ معترك الاقران ناسبوطى ٦/١ التحرير والتنوير ٢٠٢/٣ ، ٢٨/٧ ، ١٧٢/١٧ ، ١٥٨/١٦ .

✽ من هذا قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ✽ انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون» (المائدة / ٩١) .

فى مساق سورة المائدة المقصودة للدعوة الى إلفاء بالعفود التى عقدها الله مع الذين آمنوا ، فهى سورة مفعمة بالحديث عما أحل وحرم ، وقد جاء فيها النداء على الذين آمنوا مشغوعا ببيان ما أحل الله وما حرم ست عشرة مرة (٢) وهذه الآية هى النداء الحادى عشر . كان الأمر فيها باجتناب أربعة أشياء جسام فى حياة العربى : الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، واصفا لها بأنها « رجس من عمل الشيطان » وفى هذا وطاء وتهيئة لتتلقى النفوس الأمر باجتنابه على قدر ما كانت له عاشقة ، وفيه غارقة ، وفى الأمر بالاجتناب إبلاغ فى الأمر بتركها يتناغم مع ما يعرب عنه قرنهما وجمعها فى غمد : خمر وميسر وأنصاب وأزلام ، والاخيران شرك عظيم ، وكان كل واحد من هذه الأربعة باب الى ما بعده فالخمر أم الكبائر ومن وقع فيها فى المقامرة فكان أقرب الى ولوج باب الشرك بالله رب العالمين ، وقد جاءت الآية (انما يريد الشيطان ٠٠٠) مبينة أن الخمر والميسر أداة الشيطان لتليقاع فى العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فأغلق

(٢) ورد فى الآيات رقم / ١ ، ٢ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ٢٥ ، ٥١ ، ٥٤ ،

٥٧ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

ولم يبلغ فى سورة غيرها ما بلغ نداء الذين آمنوا فيها ففى البقرة احدى عشرة مرة ، وفى آل عمران سبع مرات وفى النساء عشر مرات وفى الانعام والاعراف لم يرد قط وفى كل من الانفال والتوبة خمس مرات ٠٠٠ (الخ) .

بابهما والاعراض عنهما والابلاغ في اجتنابهما أدعى الى الابتعاد عن
الشرك بالله ، ومن ثم جاء الامر بالانتهاء عنهما فى صورة معربة عن
عظيم استحقاقه والحرص عليه ، فجاء فى صورة استفهام .

هذا الاسفهام المعرب عن الامر بالانتهاء أمرا لازما يتناسب فى ذلك مع
ما يعرب عنه النداء عليهم بعقد الايمان (يا أيها الذين آمنوا) ومع
اصطفاء (انما) ومع ترتيب هذه الموبات وتصديرها بالخمير ووصف
هذه الأفعال بأنها رجس من عمل الشيطان والامر باجتنابها وتعليله
بالفلاح لمن أطاع فاجتنب ، ومع تبيان أن الخمر والميسر من أداة الشيطان
الفاعلة فى تدمير المرء والأمة .

فأعلى صور الامر أنسا بهذا السياق انما هو الصورة التى جاء عليها
أولا بالتصريح بالامر بالاجتناب الذى هو أبلغ فى الامر بالمباعدة من
من قولنا (اتركوه) فقد يترك المرء الشيء وهو على مقربة منه بينما
المجانبة تخل بالكلية ومفاصلة بعيدة الشقة اذ يكون كل منهما فى
جانب (٣) .

وجاء الامر ثانيا فى كل صورة الاستفهام عن الانتهاء المعطوف بفاء
السببية اعرابا عن أن كل ما مضى داع حثيث الى وجوب الالتزام
بالانتهاء عما سبق ذكره من موبات ، فكان « قوله : «مهل أنتم منتهون»

(٣) جاء الامر بالاجتناب فى القرآن فيما هو بالغ الفساد (واجتنبوا
الطاغوت = النحل / ٣٦) ، (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا
قول الزور = الحج / ٣٠) (اجتنبوا كثيرا من الظن = الحجرات / ١٣)
وجاء دعاء ابراهيم (واجنبني وبنى أن نعبد الاصنام = ابراهيم /
٣٥) .

فهذا الفعل امرا وخبرا انما أوقع على ما هو بالغ الفساد (السماء /
٣١ ، الزمر / ١٧ . الشورى / ٣٧) .

من أبلغ ما ينهى به كانه قيل قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا ، (٤) .

وفي جمع الخمر والميسر أولا إلى الانصاف والأزلام ، ثم أفراد الخمر والميسر ثانيا إبلاغ في تصوير ما في الخمر والميسر في المفاسد التي هي إلى ما في الانصاف والأزلام أقرب ، والمخاطبون كانوا قد تخلوا تماما عن الانصاف والأزلام ، ولم يبق فيهم منهما شيء ، فإنه لمنافساته عقد الايمان الذي عقده ، فأعرب عن أنهم مطالبون بالتخلي عن الخمر والميسر تخليهم عن الانصاف والأزلام ثم أفردهما بالذكر ليعلم أن المقصود بالذكر الخمر والميسر ، فطالبهم بالانتهاء عنهما انتهاء لا يقل عن انتهائهم عن الانصاف والأزلام ، ولذا كانت مقالة « عمر بن الخطاب » حين سمع هذا الاستفهام (فهل أنتم منتهون) : انتهينا (٥) .

✽ ومن هذا الباب قوله تعالى :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله معتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ✽ فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا الله فهل أنتم مسلمون » .
هود / ١٤ - ١٤) .

في سورة « هود » المكية النزول والمنصوية لاثبات تنزل القرآن من عند الله ، ووصفه بالاحكام والتفصيل والاعجاز الذي لا يطاول جاء كالتحدى الذي جاء في سورة « يونس » : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (يونس

(٤) الكشف ٦٤٢/١ .

(٥) سنن أبي داود : الأثر به : باب في تحريم الخمر ٣/٢١٨ ،

(٣٨/) الا أنه في سورة « هود » ، كان تحدياً بعشر سور مفتريات ،
فالمفارقة بين التحدين واضحة فيما تحدى به (٩٦) .

وفى قوله (فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا) تفريع على قوله
(وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) فالاعلى أن المخاطب
في الآيتين واحد ، وهم المعاندون المتحدون . أى فان لم يستجب لكم
من تدعونهم من دون الله لتأتوا بعشر سور مثله مفتريات فاعلموا أيها
المعاندون أن القرآن ما نزل الا بعلم الله وأنه لا اله الا هو جل جلاله ،
فذلك العلم انما هو ثمرة لازمة من اعراض من تدعونهم عن الاستجابة
لكم لعجزهم عن أن يعينوكم عن الاتيان بعشر سور مثلى القرآن مفتريات .
وفرع على قوله (فاعلموا) قوله (فهل أنتم مسلمون) أى فأن لم

(٩) الجمهور على أن سورة هود نزلت من بعد سورة (يونس)
وكان مقتضى الظاهر ان يكون التحدى أولاً بعشر سور وأخراً بسورة
مراعاة لظاهر التدرج فى التحدى يقول برهان الدين البقاعى فى
سورة هود : « تحدى فى سورة يونس عليه السلام بسورة واحدة مثل
جميع القرآن غين معنيين فيها بالتفصيل الى السورة تخفيفاً عليهم
واستهانة بأمرهم فلما عجزوا تحدى بعشر مفتراة ، ولما خفف عنهم فيها
التقيد بصدق المعنى وحقيقة المبانى ألزمهم بما خففه عنهم فى (يونس)
من التفصيل ولم يخلهم من التخفيف اشارة الى هوان أمرهم واحتقار
شأنهم بأن جعلها الى عشر فقط ، فلما عجزوا اعيد فى المدينة الشريفة
لأجل أهل الكتاب تحديهم بسورة أى قطعة واحدة مقرونة ذلك بالاخبار
بدوام عجزهم عن ذلك فى قوله تعالى فى (البقرة) فان لم تفعلوا ولن
تفعلوا - الآية ، فالتحدى به فى كل سورة غير المتحدى به فى
الأخرى » .

نظم الدرر ج ٩/٢٤٩ ، وانظره ج ٩/١٢٣ ، ج ١/١٦٢ -
١٦٣ ، ج ١١/٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ج ١٩/٢٥٠ .

يستجيبوا لكم فاعلموا ، وأسلموا فهو استفهام فيه الحث البالغ على إيقاعهم الاسلام أى الدخول فى الاسلام ففيه تمييز لمعنى الامر فى (فاعلموا) يضيف الى العلم بذلك الاقرار والتسليم والالتزام الذى هو مقتضى الأمر بالاسلام ، والانيان بالامر فى صورة الاستفهام يهمل الدأخلة على جملة أسمية أدل على طلب الاسلام وكمال العناية بحصوله من الامر به بصيغته (فأسلموا) ومن دخول (حل) على الفعل (فهل نسلمون) ذلك أن الطالب لشيء اذا ما أحب شيئا عبر عنه بما يفتضى ثبوته اعرابا عن ان ذلك مما شأنه أن يكون حاصلًا لعظيم مقتضياته وجليل دواعيه .

والمقتضيات والدواعى لايقاع اسلامهم واعترافهم بأن القرآن حق من عند الله قد نحذر بها السياق الذى أقيم فيه قوله (فهل أنتم مسلمون) على نحو لا يبقى معه على العناد الا من ختم الله على قلبه ، وفى هذا من الحث والالهاف والتهيج ما فيه .

وهذا الذى اصطفيته من أن الضمائر فى قوله (لكم) وما بعده للمعاندين هو الوجه الأعلى وهناك وجه آخر : أن يكون الضمير (الواو) فى (فان لم يستجيبوا) راجعا الى المعاندين والضمير فى (لكم) للرسول صلى الله عليه وسلم والجمع للتعظيم أولا وللمؤمنين لأنهم أتباع له صلى الله عليه وسلم ، وفيه تنبيه لطيف على أن حقهم أن لاينفكوا عنه صلى الله عليه وسلم ، ويناصبوا معه لمعارضة المعارضين كما كانوا يفعلونه فى الجهاد ، وكذلك انضمير فى (اعلموا) راجع الى الذين آمنوا أى دوموا على العلم وازدادوا يقينا وثبات قدم أنه من عند الله ، وكذلك الضمير فى (فهل أنتم مسلمون) أى مخلصوا الاسلام أو ثابتون عليه وهذا من باب التثبيت والترقى فان مقامات الطاعة حد كثيرة . واستظهر الوجه الاول الذى اصطفيت أبو حيان رقاه عنه الزمخشري انه (وجه حسن مطرد) ، وذهب الشوكانى الى أن فيه قوة وضعفا : قوته من اتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها الى تأويل

وضعه لما في ترتيب الأمر بالعلم على عدم الاستجابة ممن دعوههم واستعانوا بهم من الخفاء واحتياجه الى التكلف (١٩) .

والحق أنه لاخفاء ولا تكلف لأن من تحدى ودعى الى الاستعانة بمن يستطيع أن يدعو ثم عجز هو ولم يستجب له من دعاه كان ذلك دالا على العلم بأن ما تحدى به انما هو من عند الله وأن الذى أنزله اله واحد لا شريك له فوجب اسلام الوجه له .

✽ وجاء الأمر بالاسلام أيضا بقوله (فهل أنتم مسلمون) في سورة الانبياء : قال تعالى :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ✽ قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » ✽ فان تولوا فقل أذنتكم على سواء وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون » (الانبياء / ١٠٨) .

يكاد يكون المعنى المهيمن على سورة الانبياء معنى التوحيد والدعوة اليه وأنه الصراط المستقيم ، فيكاد يكون قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا ، فسبحان الله رب العرش العظيم » (الآية / ٢٢) هو محور المعنى الرئيس فى السورة ، تدور فى فلكه المعاني الجزئية للآيات ، وقد صرح فيها بمعنى الواحدانية فى غير موضع .

وجاء فى ذروة بناء المعنى فى هذه السورة قوله : « قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » من بعد أن قرر ان فيما ذكره فى هذه السورة من الأخبار والقصص والمواعظ والوعد والوعيد والبراهين القاطعة بلاغا عظيما لقوم عابدين معترفين بواحدانية الله ،

(١٠) ينظر : الكشف ٢٦٢/٢ المحرر الرجيز لابن عطية ١١٨/٩ — ١١٩ غاية القاضى للشهاب ٨٢/٥ البحر المحيط ٢٠٨/٥ . فتح القدير ٤٨٦/٢ ، التحرير والتنوير للظاهر بن عاشور ٢١/١٢ ، هل الاسنفهامية للدكتور صبحى رشاد ص ٦٣ - ٦٦ .

ومن بعد أن قرر أن ارسل النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة الخاتمة الى الاقرار بالوحدانية انما هو رحمة للعالمين جميعا ، إذ كانت دعوته عامة بينما كانت دعوة الأنبياء من قبله الى التوحيد مفسورة على أقوامهم ومن هنا كان قوله « قل انما يوحى الى ٠٠٠ الآية » تليخيص جسامع أصول دعوته العامة ودعوة الأنبياء من قبله ، وجاء قوله « انما يوحى الى ٠٠ » تحتل فيه (ما) فى (انما) بكسر الهمزة أن تكون رائدة كافة (ان) وأن تكون موصولة أى ان الذى يوحى الى انه ما الهكم الا اله واحد ، والاعلى أن تكون (ما) كافة و (انما) مفيدة حصرا فقد جاء فى السورة نفسها ما هو صريح فى هذا « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون » (الانبياء / ٢٥) وأقيم النفي والاستثناء فى هذه الآية فى مقام مماثل للمقام الذى أقيمت فيه (انما) المكسورة و (انما) المفتوحة ، فكان فى هذا اعراب عن افادة (انما) المكسورة والمفتوحة المقصر :

وفرغ على ذلك الابلاغ فى طلب الدخول فى الاسلام فان كل ما سبق بيانه دافع وحاث على ذلك الدخول ، فقد بين لهم بالدلائل والبراهين المنصوبة فى هذه السورة ما يقضى الانصاف معه الدخول فى الاسلام وبين لهم عقبي الامم التى لم تسلم ألوحه الله ، فتذعن بالوحدانية والطاعة ، فلم يبق أمامهم من بعد ذلك الا أن ينصفوا ، فيدخلوا فى الاسلام ، فجاء هذا الطلب فى صورة استفهام بهل الداخلة على جملة اسمية ابلاغا فى الدعوة الى تحقيق ما ذحلت عليه (هل) وفيه تسفيه لمن لم يقبل على ذلك ، ولذا جاء من بعد ذلك قوله تعالى : « فان تولوا فقل أذنتكم على سواء ، وان أدري أقرب أم بعيد ما توعدون » فان فيه من التهديد ما فيه لمن لم يستجب لما طلبه بقوله « فهل انتم مسلمون » .

❖ ومن هذا الباب فى السورة نفسها قوله تعالى :

« وذود وسليمان اذ يحكما فى الحرت اذ تمشت فيه غنم انقوم وكنا لحكمهم شاهدين » فهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلمنا

وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴿ وعندها صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون ﴾ (الأنبياء / ٧٨ - ٨٠) .

فانه من بعد أن بين بعض ما أفاضه على عبديه « داود وسليمان » من نعمة وما علمه داود من علم أمتد نفسه لمن بعده من صناعة الدروع لتحصنتنا من بأسنا طلب منا شكره على تلك النعمة البالغة ، فالتخاطب في قوله (أنتم) هولنا معشر المسلمين ، ولا غرابة في أن يطلب منا الشكر على نعمة أنعم بها على « داود » ، لأن نفع هذه النعمة ممتد إلينا تتمتع به أكثر مما تمتع به قوم « داود » ، فإن تلك الصنعة قد بلغت في عصرنا مبلغا عظيما في الاتقان والجودة فكان الشكر عليها منا أبلغ وطلبه منا أعظم (١٤) .

وهذا ما يتناغى مع اخراج الأمر في صورة الاستفهام ليبل الداخلة على جملة اسمية لأن تلك النعمة جد عظيمة ففيها وقاية من شرور البأس واختيار كلمة (بأس) هنا ذو دلالة واضحة على الشدة والنكابة . وما كان كذلك كان الشكر عليه أوجب فاقضى أن يكون الحث عليه أبلغ فكانت صورة معنى الأمر به هنا على ما جاء عليه النظم القرآني ، إذ هو الأدل على ذلك ، كما سبق بيانه من قبل في مثل هذا .
* ومن هذا الباب ما يحكيه القرآن في سورة الشعراء :

« قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاء وأبعث في المداثر حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين ، (الشعراء / ٣٤ - ٤١) .

فإن قولهم للناس : هل أنتم مجتمعون ظاهر الدلالة على حثهم على المبادرة الى الاجتماع (١٦) وفي هذا الحث والاستعجال على الاجتماع اعراب عما يسعى اليه فرعون من تكثير سواد المؤيدين للسحرة أربابا لموسى وإيقاعا للخوف في فؤاده فلا يكاد يستطيع غلبة عليهم ، ولذا اتبعوا طلبهم الاجتماع رجاءهم اتباع ما يسعى اليه السحرة يسحرهم من تكذيب « موسى » عليه السلام ، ولما كانت حاجتهم الى تكالب المؤيدين سحرة فرعون وتجمهرهم جد عظيمة لما يظنون أنه مترتب على ذلك الاجتماع من آثار الانتصار لهم واندجار دعوة « موسى » عليه السلام وكان اخراج طلب اجتماعهم في صورة استفهام بهل الداخلة على جملة أسمية العربيه عن ضرورة تحقيق هذا المطلوب وأنه مما ينبغي أن يبالغ في تحقيقه ، كانت صورة معنى الأمر التي جاءت في النظم هي الآنس بالمعنى والسياق .

✽ من الاستفهام العرب عن معنى الأمر قوله تعالى :

« فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين أسلمتم فإن أسلموا فقد أهتدوا ، وإن نولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (آل عمران / ٢٠) .

جاء ذلك في معرض تأكيد أن الدين عند الله الاسلام ، وإن الله لن يقبل غيره دينا ، وأن أهل الكتاب يزدادون بمجيء العلم اختلافا . فانكروا الاسلام وحاجوا وجادلوا ، فأمر الله - عز وجل - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن في وجوههم أنه أسلم وجهه لله هو ومن اتبعه ، وأمره أن يدعو أهل الكتاب الى الاسلام ، وجاءت الدعوة اليه في صرورة غير صريحة به فلم يقل له : وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين أسلموا .

(١٦) الكشف ١١٢/٣ ، البحر المحيط ١٥/٧ ، نظم الدرر

٣٠/١٤ - ٣١ ، تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه ١٢/٧ .

ذلك أن السياق هنا ليس للأمر بالاسلام وطلبه منهم فحسب بل هو له ممزوجا بالاستبطاء والتوبيخ عليه والتعير بالمعادية وفلة الانصاف والبلادة وجمود القريحة (١٧) اذا كان مقتضى حالهم وهم أدل كتاب أن يكونوا المسارعين الى اليقين به والذب عنه والدعوة اليه « وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » (البقرة / ٤١) ، ففي قوله (أسلمتم) ما في قوله (أسلموا) وزيادة يقتضيها انقسام بضاف اليه تناغيه مع التهديد البالغ في قوله تعالى من قبله « ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » وقوله من بعده « وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

وجاء الاستفهام في (أسلمتم) داخلا على فعل ماض ، ومقتضى ظاهر الدلالة أن يكون داخلا على المضارع ، اذ هو آنس بطلب ما لم يكن من قبل طلبه ، لأن في البيان بالماضي هنا ما ليس في المضارع : ففي البيان بالماضي اعراب عن أن اسلامهم كان ينبغي أن يكون من قبل هذا منذ علمهم بالدعوة ، وأن اسلامهم هو الذي تقتضيه منزلتهم فهم أهل كتاب وعلم به ، ومثلهم في ذلك الامميون كان ينبغي أن يسارعوا الى اعتقاده ونصره لما في ذلك من رفعهم وتشريفهم ، اذ الداعي اليه من انفسهم وكتابه بلسانهم « فاستمسك بالذي أوحى اليك انك على صراط مستقيم * » وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف / ٤٣ - ٤٤) ففي البيان بالماضي تناسق مع البيان بالاستفهام عن معنى الأمر .

* ومن صور الاستفهام المعرب عن معنى الأمر ماثراه في قوله تعالى :

« الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهوا باخراج الرسل وهم مدوكم أول مرة » (التوبة / ٢١) .

(١٧) ينظر : معاني القرآن للفراء ٢٠٢/١ الكشف ٤١٦/١ ، تفسير البياضاي وحاشية الشهاب ١٤/٣ التبيان في اعراب القرآن للعكبري ١٢٩/١ البيان في غريب اعراب القرآن لابن الانباري ١٩٦/١ .

فوله (ألا) يحتمل أن يكون (ألا) التخصيصية ومعنى عند بعض أهل العلم غير مركبة

ويحتمل أن تكون (ألا) من همزة الاستفهام و (لا) النافية ، وهذا الاسمهم انكار توبيخي على فعل لم يقع فهو انكار عدم الوقوع . والاستفهام الانكاري في معنى النفي فإذا دخل على النفي أفاد الإثبات فانتضى طلب وقوع ما أنكر عدم وقوعه ، لأنه إذا ما كان ترك الفعل منكرا موبخا على عدم وقوعه أعرب ذلك لزوما عن أن إيجاده مطلوب (١٨)

فهو انكار التقاعس عن قتال قوم كان منهم ما يستوجب قتالهم .

وقد سبق هذا الأمر بقتالهم المخرج في صورة استنهام بأمر صريح بقتالهم ، وادف كذلك بأمر صريح بذلك فانتظمت ثلاثة أوامر بقتالهم جعل مع الأمر الأول والصريح ما يؤمى إلى استحقاقهم القتال حيث عدل عن الضمير إلى اسم الظاهر ، فلم يقل : وان نكثوا إيمانهم من

(١٨) ينظر عناية القاضى للشهاب ٢٠٧/٤ .

الزمخشري يذهب إلى أن الهمزة دخلت على (لا) فائدة تقريراً بانتفاء المقاتلة ومعناه الحض عليها على سبيل المبالغة ، فيكاد مآل المعنى يكون موافقا للقائلين بأن الهمزة للانكار التوبيخي . (انكشاف ١٧٧/٢) والواقع أن أهل العلم مختلفون في دلالة الهمزة الداخلة على النفي أنفيده تقريراً أم انكاراً ، وأكثر البلاغيين على أنها من قبيل انكار ما دخلت عليه الهمزة فيبطل النفي ويعود الأسلوب إلى الإثبات في الكثير الغالب .

راجع المطول ص ٢٣٧ ، شروح التلخيص ٢٩٧/٢ وما بعدها ، دلالات التراكيب ص ٢٤٥ وما بعدها ، عبث الوليد لابی العلاء ص ٢٢١ ، الخصائص لابن جني ٤٥٧/٢ ، ٢٦٩/٣ ، أماني السهيلي

ص ٤٩ .

بعد عهدهم وطمعوا في دينكم فقاتلوهم ، بل نادى عليهم بوصف مؤذن
بعظيم استحقاقهم القتال (أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم) .

وجاء مع الأمر الثاني البادى في صورة استفهام بوصف آخر يعلى
من الاعلان عن استحقاقهم القتال مع التوبيخ على ترك قتالهم وهم بهذا
الوصف ، وهدد على التوجس من قتالهم (اتخشسونهم فإله أحق ان
تخشوه ان كنتم مؤمنين) .

وجاء مع الأمر الثالث الصريح بقتالهم الوعد بالنصر عليهم وتعذيبهم
واخزائهم .

هكذا تتناسق صور الأمر بقتالهم ابلاغاً في الدعوة الى تحقيقه
واعراباً عن أن ذلك مما لا يليق بأحد أن يتقاعس عنه .

✽ ومن هذا قوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن
عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم » (النوبة / ١٠٤) .
جاءت هذه الآية من بعد الحديث عن أحوال المنافقين من أهل المدينة
ومن حولها من الأعراب ، مبينا حال فئة من المسلمين ضعفت همتها ،
فخلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً من التخلف عن الغزو وليسوا من
انفائين منهم أبو لبابة ، والجد بن قيس ووديعه بن حزام ربطوا أنفسهم
في سوازي المسجد النبوي فلما أطلقوا جاءوا بأموالهم يرجعون النبي
صلى الله عليه وسلم أخذها منهم في سبيل الله ليطهرهم فأخبرهم أنه لم
يؤمر بذلك ، فنزل (خذ من أموالهم ٠٠٠) الآية (١٩) .

ولما كان تخلفهم عن الغزو أمراً عظيماً نفى نفسه بقى في نفس من غلب
نوفه رجاءه شيء من التوجس ألا تكون توبتهم مقبولة فكان الاستفهام
الداخل على النفي « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » انكاراً
لعدم علمهم بذلك معرباً عن أمرهم باليقين من ذلك ، فكأنه قيل ليعلموا أن
الله هو يقبل التوبة عن عباده ، إلا أن اخراج الأمر بالعلم في صورة
الاستفهام كان فيه مزج الأمر بالتعجب من توقفهم في عدم العلم بذلك .

وجاء من بعده أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون فكان في ذلك مزيد من الترغيب في العمل الصالح الذي منه التوبة .

تخليص القول في هذا أن الاستفهام الانكارى النوبينى الداخلى على نفى هو على معنى لا ينبغى أن لا يكون ذلك منك ، فكان حنا على الفعل وترغيبا فيه والزاما بتحقيقه .

يقول عبد القاهر : واعلم أنا وإن كنا نفسر « الاستفهام » فى مثل هذا بالانكار ، فإن الذى هو محض المعنى : انه لينتبه السامع حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع ويعبى بالجواب (٢٠) .

ومن دلالات قوله هذا : اما لانه لم يفعل ما لا يستصوب تركه فاذا روجع فيه تنبه وعرف تقصيره ، وحينئذ يقبل على ايجاد ما أنكر عليه عدم فعله ، وذلك حقيقة معنى الأمر وزيادة ، فهو أقوى فى الدلالة على معنى الأمر من صيغته الصريحة وأوفر ، فإن فيه فوق ما فيها والمقامات التى يقوم فيها تعجز الصيغة الصريحة عن أن تقوم فيها فتوفيتها الحق .

ومجمل القول ومحصله أن أعراب الاستفهام عن معنى الأمر فى الذكر الحكيم كثيرة مواقعه ، ولكنه قد يكون بعض صور الاستفهام دالة على صيغة الأمر وتفسر به غير أنها عند التحقيق لا تكون معربة عن المعنى الحقيقى للأمر الذى نحن بصدور القول فيه وإن اعربت عن صيغة الأمر ، وفرق بين الصيغة والدلالة .

من ذلك دخول همزة الاستفهام على الفعل (رأيت) فيقال (رأيت) بمعنى (أخبرنى) ، كما فى قوله تعالى : « قل أرايتم أن أناكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون أن كنتم صادقين » (الأنعام / ٤٠) ، فأهل لعلم على أنه بمعنى (أخبرونى) فاذا كانت معه (كاف الخطاب) كما فى الآية فانه تلزم (التاء) حالة واحدة من الفتح والافراد وإن كان

المخاطب غير مذكر أو غير مفرد استغناء بمطابقة (التكاف) لما يراد بها من افراد وتذكير وضديهما ، فان لم يرد معنى (أخبرني) وجبت مطابقة (التاء) لما يراد بها (٢١) .

وهي حين تفيد معنى (أخبرني) فان ذلك الطلب بالأخبار ليس على حقيقة معنى الأمر التي حققناها من قبل ، بل تكون لمعان أخرى كالتنبيه والتعجيب . . . الخ وهي كذلك حيث وقعت بمعنى (أخبرني) في الذكر الحكيم . فقد جاءت في أربعة وثلاثين موقعا منه (٢٢) وبمراجعة التراكيب وسيقاتها تحقق لي أن افادتها معنى (أخبرني) ليس على حقيقة معنى الأمر بالأخبار ، فلم يكن ذلك النمط من الاستفهام مما نحن فيه .

* * *

(ب) (الاستفهام العرب عن النهي) :

واذا ما كان الاستفهام عربيا عن الأمر فانه قد يأتي عربيا عن النكف عما دخلت عليه أداة الاستفهام ، فيفيد معنى النهي ، وذلك كما في قوله تعالى : « يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ، (آل عمران ٧٠ - ٧١) فغير خفي أن القرآن ينكر على أهل الكتاب تلبسهم بتلك

- (٢١) ينظر : الكتاب لسبويه ٢٣٩/١ - ٢٤٠ (هارون ط ١٤٠٣ - بيروت) مجالس ثعلب ٢/٢١٥ - ٢١٦ (ت/ هارون) انبياء في اعراب القرآن للعكبري ١/٢٤١ - ٢٤٢ ، الكشف ١٨/٢ ، تفسير البياضوي ومعه عناية القاضى للشهاب ٥٨/٤ ، البحر المحيط ١٢٤/٤ - ١٢٥ .
- (٢٢) وردت هذه الصورة في المواقع الآتية : الأنعام (٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧) يونس (٥٠ ، ٥٩) هود (٢٨ ، ٦٣ ، ٨٨) الاسراء (٦٢) الكهف (٦٣) مريم (٧٧) الفرقان (٤٣) الشعراء (٧٥ ، ٢٠٥) القصص (٧١ ، ٧٢) فاطر (٤٠) الزمر (٣٨) فصلت (٥٢) الجاثية (٢٢) الأحقاف (٤ ، ١٠) النجم (١٩ ، ٣٣) الواقعة (٧١ ، ٦٨ ، ٦٣ ، ٨٥) الملك (٢٨ ، ٣٠) العلق (٩ ، ١١ ، ١٣) الماعون (١) .

الأفعال وهم على حال توجب عليهم أن يكونوا على غير ما هم منكبسون به من كفر بآيات الله والباس الحق بالباطل وكتمان الحق ، فهو وإن أعرب عن معنى نهيمهم عن هذه الأفعال فإن صورة الاستفهام أعرابا عما هو أعلى من النهي ، فيه مع النهي تبكيت وتقريع ، وتبيان للضلال وتعجيب من حالهم التي لا تكون من عاقل إذ كيف يكفر بآيات الله من هو مشاهد صدقها وحقيقتها وكيف يلبس الحق بالباطل ويكتم الحق من هو عليهم به؟! ﴿ ومن هذا الضرب أيضا قوله تعالى : « اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ، ان كنتم مؤمنين » (التوبة / ١٣) .

سبق بيان اعراب صدر هذه الآية عن معنى الأمر بالاستفهام في قوله « الا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ٠٠٠ » فهو إذ أنكر عنهم نقاعسهم عن قتال من يستوجب فعله الاثيم قتاله ، نهاهم عن خشيتهم ، فلبسوا أهلا لأن نخشوهم فالله أحق أن يخشى .

وإذا أفاد الاستفهام تقريراً بفعل لا ينبغي أن يكون وتوبيخاً عليه فإن هذا الاستفهام يعرب ضمناً عن النهي عن ذلك الفعل ، لأنه ما يقرر عليه وبوبخ إلا من أجل حثه على الكف عنه ، وذلك عين النهي وعبد القادر يبين أنه مما تكرر نوله همزة الاستفهام التقرير بفعل قد كان ، والإنكار له لم كان ، والتوبيخ لفاعله عليه ، فمحض المعنى في مثل هذا أنه لينتبه السامع حتى يرجع الى نفسه فيرتدع لأنه لم يأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ (٢٧) أو لأنه فعل ما لا ينبغي أن يكون منه خاصة أو منه ومن غيره فما كان الاستفهام الإنكارى فيه على معنى لا ينبغي أن يكون هو متضمن معنى النهي عن ذلك ، والارتداد عنه (٢٤) ، فكانه قيل في هذه الآية « فلا تخشوهم واخشوني » (البقرة / ١٥٠) الا أن ما عليه النظم في سورة التوبة أنس بسياقها من

(٢٣) ينظر دلائل الإعجاز ص ١١٤ ، ١١٦ ت / شامكر (بتصرف) .

(٢٤) الأشباح ، وشروح النماخيص ٢ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢٥ - همزة)

أنها سورة المفاصلة والبراءة فكان الأمر بقتال المشركين بالغنا مؤكدا فكان
الآنس به الإبلاغ في النهي عن خشيتهم • والتوبيخ على ذلك •

✽ ومن هذا انضرب في القرآن كثير كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين
آمنوا ثم تقولون ما لا تفعلون » (الصف / ٢) •

يروى أن أناسا من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد قالوا لو نعلم
أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليه ، فنزل قوله تعالى « هل ادلكم على تجارة »
فلما كان يوم أحد ، وكان ما كان من تكوص بعضهم نزل قوله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون » فسادهم بوصف يفرض
عليهم ألا يكون منهم ما كان ، فان الدخول في عقد الإيمان ملازم بفعل
ما وعد ، فعرض بهم وأنكر أن يكون ذلك منهم فقوله (لم تقولون) في
ظاهره سؤال عن علة قول لا يفعلونه ، وهي في واقعہ انكار وتوبيخ
وتقريع على قول ما لا يكون منهم •

ويمكن أن يكون قوله (يا أيها الذين آمنوا) مرادا به المنافقون أي
آمنوا بالسنتهم ويكون معهم من فعل فعلهم من الاكتفاء بالقول ، يكاد قوله
« كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » يؤازر القول بأن المنادى هم
المنافقون ، وهو المروى عن الحسن ، وظاهر كلام الزمخشري وابن عطية
إلى اصطفاء الأول وترجيحه مما جاء من بعده من أمر الجهاد والقتال (٢٥) •

وينظر في الاستفهام في الآية أهو انكار متضمن النهي عن قول ما لا
يفعل أم هو متضمن النهي عن عدم ما وعد به أو اخبر أنه سيكون فيكون
أمرا بفعل ما قيل وعدا ؟ •

ان قلنا ان الآية نزلت فيمن يتمدح بما لم يفعل يقول فعلت كذا وكذا
وهو لم يفعل فانه لا يخفى أن المنهي عنه قول ما لم يكن ، لأنه من الكذب

(٢٥) الكشف ٩٦/٤ - ٩٧ ، المحرر الوجيز ٥٠١/١٥ - ٥٠٣ ،

وانظر معه - البحر المحيط ٢٦١٧٨ ، الفتوحات الإلهية ٢٢٠/٤ - ٢٣٦ •

وهو مقت لأنه يهـدى الى النار ، وهذا الوجه لا يتناسق مع ما بعده من بيان ما يحب الله فى مقابلة ما يمقت .

وان قلنا ان الآية فيمن وعد ولم يفعل فان المعنى على « ان مدار التعبير والتوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم ، وانما وجها الى قولهم تنبها على تضاعف معصيتهم ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعى - ففط ، بل الوعد به أيضا ، وقد كانوا يحسبونه معروفا ، ولو قيل : لم لا تفعلون ما نقولون لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود فكان ما عليه النظم هو البدع الجامع اذ بين لنا من خلال النهج التركيبى أنه اذا ما كان قول ما لا يفعل من الخير مقتضا كبرا فكيف يكون ترك فعل الخير ، فكان نهيا عن أمرين سيق النظم اليهما معا وكان الأول مسوقا له الكلام أصالة وهو ترك فعل ما وعد به والآخر سيق له الكلام تبعا وهو الوعد بفعل لا يفعل . وان كان ظاهر العبارة لما سيق تبعا وهذا نهج بيانى لا يخفى فى الذكر الحكيم . فقد يكون ظاهر العبارة هو المسوق له العبارة تبعا كما فى قوله تعالى : « وأحل الله البيع وحرم الربا » (البقرة / ٢٧٥) فالمعنى المطابق لمنطوق العبارة وهو الحكم على البيع بالحل وعلى الربا بالحرمة لم يسق الكلام اليه أصالة بل تبعا وانما سيق أصالة لبيان الفرق بين البيع والربا اللذين ادعى الكافرون أنهما سواء « قالوا انما البيع مثل الربا » .

محصل القول أن اعراب اسلوب الاستفهام عن معنى النهى فى الذكر الحكيم غير قليل من أن الاستفهام التوبيخى على إيقاع ما لا ينبغي وكذلك الاستفهام التعجبى من وقوع أو إيقاع ما لا يصح أن يكون انما هو ظاهر واخر فى البيان القرآنى .

(ثالثا) اسلوب العرض والتحضيض

مما يستفاد منه معنى الأمر ما دل على العرض أو التحضيض ، وهو عند جمهور العلماء (هلا وألا ولولا ولوما) .

وانما جعلت دلالتها على الأمر من قبيل الدلالة الأسلوبية لا من قبيل الصيغة كما فى الضرب الاول من أن دلالتها على التحضيض الذى هو طلب الفعل بحث ، أو العرض الذى هو طلب بلين انما هى دلالة سياقية تختلف باختلاف السياق : ومن أن كثيرا من أهل العلم على أن هذه الأدوات مركبة من أداتين اما (هلا) فانها من (هل) و (لا) وهل فيها دالة على التمنى و (لا) وهل فيها دالة على التمنى و (لا) للجد ، ودلالة (هل) على التمنى دلالة غير وضعية ، بل ان دلالتها على الاستفهام دلالة استصحابية انتقلت اليها من طول استصحابها (همزة الاستفهام) علما كثر افتراضهما استغنى بها عن الهمزة فاقتصر على (هل) ولم يجمع بينهما وكان مجرد حضورها مستدع فى الذهن دلالة (الهمزة) التى كانت قرينها ، فما فى (هل) من استفهام هو من (الهمزة) وطول الصحبة يعدى (الرجل على دين خليله) ، من ذلك كانت دلالة (هلا) على التحضيض طورا رابعا من أطوارها الدلالية ، وما كان كذلك فى الدلالة الأسلوبية السياقية أدخل . واما (ألا) بالتشديد فهى عند أكثر أهل العلم (هلا) بقلب (الهاء) همزة ، أو هى اصل (هلا) بناء على أنها مكونة من (أن) و (لا) وتم خلاف بينهم فى نوع (لا) ، وكذلك (لولا) و (لوما) على المركبة من (لو) الدالة على التمنى الذى هو دلالة سياقية لها و (لا) أو (ما) فكانت دلالتها على التحضيض المتفرع من دلالة (لو) السياقية مع أداة النفي (لا) أو (ما) أدخل فى الدلالة المياقية (١) .

(١) ينظر آراء العلماء فى تكوين هذه الأدوات فى امتحان لسانكاسى / ١٤٧ - ١٤٨ ، شروح لتلخيص ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣ ، رصف المائى للمائى / ١٧٠ ، ٤٧١ ، شرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١٤٤ جميع اليوماع ٢/ ٦٧ ، البرهان للزركشى ٤/ ٢٣٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ .

و (هـ) لم ترد في الذكر الحكيم ، وأما (أ) بالفتح والتشديد فما نراه في قوله تعالى : « ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » (النمل / ٢٥) على قراءة الجمهور (أ) بالفتح والتشديد (٢) فان جمهور العلماء على أنها ليست أخت (هـ) ولا تعرب عن معنى التحضيض (٣) وقليل من أهل العلم من أشار إلى أن (أ) هنا تحضيضية ، وثم قراءة غير عشرية (هـ) يسجدون (٤) فيكون المعنى على أن يطلب منهم بحث وعنف السجود لمن يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم الخفى والعلن وهو ان كان لا ينبو عنه السياق فان القول به بحاجة إلى بيان وجه حذف علامة الرفع في (يسجدوا) على قراءة الجمهور فاذا ما كانت (أ) تحضيضية فان المضارع بعدما مرفوع لا منصوب ، وان قلنا انها ليست من ابدال « هاء » (هـ) همزة بل هي من (أن) الناصبة و (لا) فان مزجهما واستحالة الدلالة الأولى في كل من (أن) و (لا) إلى دلالة أخرى مبطل أعمال (أن) النصب في المضارع بعدها ، فيبطل نصب المضارع (يسجدوا) في هذه القراءة العشرية يطلب وجها يتيق بكمال الذكر الحكيم واعجازه .

وما عليه جمهرة النحاة من أن (أ) بالتشديد مكونة هنا من (ان) و (لا) وغير معربة عن معنى التحضيض له عندهم وجوه فصل القول فيها تفصيلا لسنا إلى استقصائه أو جمع أكثره (٣) اقربها عندي أن ليس

-
- (٢) المبسوط لابن مهران ص ٢٧٩ ، ابراز المعاني لابی شامة ص ٦٢٦
 (٣) التبيان للعكبري ١٧٢/٢ ، البيان لابن الانباري ٢٢١/٢ ،
 الكشف ١٤٥/٣ ، نظم اندر ١٥٣/١٤ ، تفسير البیضاوی وحاشية
 الشهاب عليه ٤٢/٧ - ٤٣ ، تفسير أبي السعود ٢٨١/٦ ، الفتوحات
 الالهية ٣٠٩/٣ - ٣١٠ ، التحرير والتنوير ٢٥٤/١٩ - ٢٥٥ .
 (٤) المحرر الوجيز لابن عطية ١٠٥/١٢ ، البرهان للدرکشی ٢٣٦/٤
 وانظر القراءة في الكشف ١٤٥/٣ .

فى العبارة زيادة حرف ، بل فيها حذف لام العلة والمتعلق بقوله (صدهم) والتقدير وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله وحذف لام العلة من قبل (أن) غير قليل وقد تناولته فى بحث سابق (٥)

وكذلك (ألا) بالفتح والتشديد فى قوله تعالى : « ألا تعلوا على وأتوا مسلمين » (النمل / ٣١) فانها مركبة من (أن) و (لا) وليست للتحضيض سواء كانت (أن) مفسرة و (لا) ناهية أو ناصدة أو مخففة و (لا) نافية (٦) وذكر الزركشى انها فى الآية تحضيضية مركبة من (أن) الناصبة و (لا) النافية (٧) ويأتى عليه ما جاء على القول بالتحضيض فى (ألا يسجدوا) بالفتح والتشديد .

وأما (ألا) بالفتح والتخفيف فهى وإن أفادت التحضيض أو العرض فى بعض سياقاتها كما قال به جمهور العلماء فإن ذلك لم يأت عليه تحتل وجهين أن تكون غير مركبة من همزة الاستفهام و (لا) بل هى موضوعة له وضعا أوليا وإن تكون مركبة من الاستفهام والنفي ، على الثانى تكون داخلية فى « الاستفهام المعرب عن معنى الأمر » السابق القول فيه وإذا نظرنا فى مواقع (ألا) بالفتح والتخفيف ومن بعدها مضارع فى الذكر الحكيم وجدنا أنها جاءت فى خمسة عشر موضعا (٧) فى آية التوبة « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم » اختلف العلماء فجماعة على أن (ألا)

(٥) انظره فى (٦٨ - ٧٥) من كتابى سبل الاستنباط من الكتاب والسنة .

(٦) البيان للعبرى ١٧٣/٢ ، البيان لابن الأنبارى ٢٢١/٢ - ٢٢٢ رصف المباني للمالقي ص ١٧٠ ، الكشاف ١٤٦/٣ الحرر الوجيز ١٠٨/١٢ ، نظم الدرر ١٥٨/١٤ ، البيضاوى وحاشية الشهاب ٤٤/٧ .
(٧) بيان ذلك : التوبة (١٣) يوسف (٥٩) النور (٢٢) الشعراء (١١) ، (٢٥) (١٠٦) (١٢٤) (١٤٢) (١٦١) (١٧٧) الصافات (٩١) (١٢٤) الذاريات (٢٧) الملك (١٤) المطففين (٤) .

استفهام داخل على النفي (أ) وآخرون على أن (الـ) حرف عرض ومعناها الحس على قتالهم (٩) والذي هو أقرب الى سياقها وما اكتسبها من أمر سابق بالقتال ولاحق أن تكون (الـ) هنا مكونة من الاستفهام والنفي الدال على انكار عدم قتالهم وتوبيخهم عليه فيتولد معنى الحس والحث على ايقاع قتالهم .

وفي سورة يوسف : « ولما جهزهم بحبازهم قال ائتوني بائع لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفى الكيل وأنا خير المنزلين » (يوسف / ٥٦) فان المعنى ظاهر على أنه تقرير لهم بأنه يوفى الكيل حثا لهم على أن يأتوا بأخيهم وليس تحضيضا على الرؤية والعلم فذلك شاخص أمامهم بل على ما يلزمه .

وآية النور : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (ي / ٢٢) فان حال سيدنا أبي بكر ظاهره يقتضى انزاله منزل من لا يحب فائكر عليه ذلك اذ في حلقه الا ينفق على مسطوح غضب عليه وعدم غفران له ، فانكر عليه ذلك كأن الذي يفعلها مع من يسئ إليه لا يحب أن يغفر الله حين يسئ مع ربه . فكان قوله (ألا تحبون) انكارا بالغا فيه حث على المغفرة ولذا ما كان من الصديق رضى الله عنه حين نزلت الا أن قال : بلى والله انا نحب أن تغفر لنا يا ربنا (١٠) فقلوه (بلى) وسياق القصة يعنى أن (الـ) استفهام داخل على (لا) .

وفي سورة الشعراء « سبع آيات ، كان خمس منها (ألا تتقون) في فتالة الانبياء : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لقومهم ، وذلك لأن صبح أن يقال انه عرض نظرا الى أنه يقال في أول الرسالة فأنه أقرب الى أن يكون انكارا لحالهم من عبادة غير الله وعدم اتقاء عذابه . فان حالهم ادعى الى انكاره » والاستفهام الانكاري في معنى العناد . ونفوه

(٨) كشاف ١٧٧/٢ ، البيضاوى والمصنف ٣٠٧/٥ .

(٩) البحر المحيط ١٦٠/٥ المصنفات الالهية ٥٢٦١/٢ .

(١٠) ينظر تفسير ابن كثير ٢٧٦/٢ (ط / عيسى الحلبي)

النفي اثبات على أبلغ وجه فيفيد الحث والتحريض عليه ، (١١) ومثل ذلك قوله فيها « واذا نادى ربك موسى أن انت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون » فانه استفهام تعجيبى من عدم تقواهم زابلاغهم فى الكفران ، وكان فيه حثا لموسى على الاسراع فى الاتيان اليهم .

وكذلك قوله تعالى فى السورة نفسها حكاية عن فرعون « قال لمن حوله ألا تستمعون » فانه ظاهر فى أنه للتعجب ، والتعجب وليس حثا وحضا على الاستماع بل الغاية منه الاعراب عن أن ما جاء به «موسى» من ان رب العالمين هو رب السموات والارض وما بينهما انما هو عجيب منكر .

وما فى « الصافات » من قوله تعالى (ي/٩١) حكاية عن سيدنا « ابراهيم » فى خطابه الاصنام « فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون * ما لكم لا تنطقون » .

فليس يخفى البتة هنا أنه لا يراد معنى الحض على أن يأكلوا ، بل هو الابلاغ فى الاستهزاء بهم .

وقوله فيها « وان الياس لمن المرسلين * اذ قال لقومه ألا تنقون ، (ي/١٢٤) هو كمثل فى سورة « الشعراء » وقد مضى ذكره .

وما فى « الذاريات » من قوله تعالى (ي/٢٧) حكاية سيدنا « ابراهيم » فى خطابه الملائكة « فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين * فقربه اليهم قال ألا تأكلون » فان سياق الكلام دال على أن الملائكة لم تأكل ، ولم يكن يعرفها فانكر عدم أكلها ، فكان ذلك استفهاما انكاريا داخلا على عدم الأكل فتولد منه الحض والحث على الأكل على أبلغ وجه ، وهذا لا يخفى .

وما فى سورة « الملك » من قوله تعالى (ي/١٤) : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » فغير حثى البتة أن معنى المطالب على أن وجه

لا يكون هنا ، بل المعنى على انكار ونفى عدم احاطته علما بمن خلق ، فهو تحقيق بانغ لاحاطته العلم بما خلق ، وذلك أظهر من أن يبسط القول فيه .

وما فى سورة « المطففين » من قوله تعالى : « ويل للمطففين » الذين اذا اكثالوا على الناس يستوفون * واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، فغير خفى أن المعنى على أنه « انكار وتعجب عظيم من حالهم فى الاجترار على التطفيف كأنهم لا يحطرون ببالهم ولا يخمنون تخميناً أنهم مبعوثون ومحاسبون على مقدار الذرة والخرذلة . . . وفى هذا الانكار والتعجب وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظم وقيام الناس فيه لله خاضعين ووصفه ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الاثم فى التطفيف . . . » (١٢) .

نخلص مما مضى أن (ألا) فى مواقعها فى الذكر الحكيم الأعلى أن ما كان منها فيه معنى التحضيض هو متولد من دخول الهمزة الاستفهامية على (لا) وأنها فى بعض تلك المواقع لم يكن فيها معنى التحضيض أو العرض .

أما (لوما) فلم ترد فى الذكر الحكيم الا مرة واحدة فى سورة « الحجر » : « لو ماتا تينا بالملائكة ان كنت من الصادقين » (الآية / ٧) فغير خفى البتة أنها فى هذا السياق لا تفيد معنى التحضيض المعرب عن معنى الأمر الذى حددته من قبل ، فما هم بالطالبيين حقيقة لا تيسان بالملائكة ، بل هم الى التهكم به ، ألا ترى الى قولهم من قبله (انك لمجنون) .

وأما (لولا) فقد وردت فى القرآن الكريم خمساً وسبعين مرة كانت فى ستة وثلاثين موضعاً للشرط . وكانت فى تسعة وثلاثين موضعاً لغير

الشرط (١٣) وهي اذ تكون للتحضيض الذي هو أمر بالغ بالفعل وحث بالغ عليه الا أنه قد لا يكون التحضيض للحث الحقيقي على ايجاد الفعل ، فقد يكون لغيره كالتعجيز أو العناد والمكابرة نرى ذلك فى قوله تعالى :

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، (البقرة / ١١٨) فذلك عتو وعناد ومكابرة فى اثبات النبوة من بعد فدحهم فى وحدانية الله بنسبة الولد اليه (وقالوا اتخذ الله ولدا - سبحانه) »

وفى قوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، (الانعام / ٨) على القول بأن الماضى يراد به المضارع فيفيد تحضيضا أو على القول بأن فى التنديم معنى التحضيض تضمينا كما يذهب اليه « العصام الاسفريانيى » (١٤) فان ذلك منهم انما هو للقدح فى النبوة وليس طلبا حقيقيا للانزال فضلا عن أنه من أدنى لاعلى فلا يتحقق فيه معنى الامر الذى حققته من قبل ، وهذا المعنى تكرر هو أو مثله من نزول الآية أو القرآن جملة أو نزول الملائكة فى المواضع الآتية (الأنعام/ ٣٧) (الأعراف / ٢٠٣) (يونس / ٢٠) (هود / ١٢) (الرعد / ٧ ، ٢٧) (طه / ١٣٣) (الفرقان / ٧ ، ٢١ ، ٣٢) (القصص / ٤٨) (العنكبوت / ٥٠)

(١٣) ورد هذا فى المواضع الآتية : البقرة (١١٨) النساء (٧٧) المائدة (٦٣) الأنعام (٨) (٣٧) (٤٢) الأعراف (٢٠٢) التوبة (١٢٢) يونس (٢٠) (٩٨) هود (١٢) (١١٦) الرعد (٧) (٢٧) الكهف (١٥) طه (١٣٣) (١٣٤) النور (١٢) (١٣) الفرقان (٧) (٢١) (٣٢) النمل (٤٦) القصص (٤٧) (٤٨) العنكبوت (٥٠) فصلت (٤٤) الزخرف (٣١) (٥٣) الاحقاف (٢٨) محمد (٢٠) الواقعة (٥٧) (٦٢) (٧٠) (٨٣) (٨٦) المجادلة (٨) المنافقون (١٠) القلم (٢٨٨) .

(١٤) الأطول ٢٣٣/١

(فصلت / ٤٤) (الزخرف / ٣١ ، ٥٣) (المجادلة / ٨) فهذه ثمانية عشر موضعا كانت (لولا) فيها معربة عن عناد الكافرين وصلفهم .

أما في سورة « النساء » فقوله تعالى (ي / ٧٧) : « وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب » وإن كان طلبا فانه ليس من قبيل الأمر بل هو الى التمنى ، ومثله في سورة « المنافقون » .

من قوله تعالى (ي ، ١٠) : « وانفقوا من ما رزقناهم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » فان معنى التمنى في (لولا) غير خفى ، فليست مما نحن فيه .

أما ما في قوله تعالى (ي ١٥) في سورة « الكهف » : هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم من افترى على الله كذبا ، فان دلالة (لولا) فيه على غير التحضير جند جلية ، فان المعنى على التعجيز والتقريع والتسفيه والتضليل .

وما في سورة « طه » من قوله تعالى : (ي ١٣٣) : « ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا لولا أرسلنا ربنا رسولا فننتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » (ي / ٤٧) .

وكذلك قوله تعالى (ي / ٤٧) في سورة « القصص » « ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلنا ربنا رسولا فننتبع آياتك ونكون من المؤمنين » فان (لولا) الداخلة على (أرسلنا) ليست تحضيضية فان ذلك في يوم القيامة على سبيل الغرض أى او اهلكناهم فى الدنيا لقالوا فى الآخرة فهو فرض مرتب على ممتنع ، فلن يكون .

وأما في سورة « الاحقاف » من قوله تعالى (ي / ١٨) : « فلولوا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهاة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون » فان دلالة التهكم والسخرية والاستهزاء بهم جند جلية .

وما فى سورة « محمد » من قوله تعالى (٢٠/ى) : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم » فانه دعاء وليس بأمر كما هو غير خفى (ى ٨٣ - ٨٦) .

وما فى سورة الواقعة من قوله تعالى (ى ٨٣ - ٨٦) : « فلو لا اذا بلغت الحلقة وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون ، فلو لا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين » فان « لولا » فى الموضعين للتعجيز البالغ والتبكيك العاضح كما لا يخفى .

واما قوله تعالى (ى/٦٣) فى سورة المائدة ، لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وآكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون « فان « لولا » دخلت على مضارع فافادت طلب النهى عن تول الاثم واكل السحت وهو حث بالغ مفعم بالتوبيخ للربانيين والاحبار على تركهم ذلك النهى عن المنكر ويحمل فى طياته تحضيضا لمن هو فى منزلهم من علماء الأمة وتحذيرا من أن يقعوا فيما وقع فيه الربانيون والاحبار فتكون العقبة سواء « لبئس ما كانوا يصنعون » فهو تنديد على ما وقع فى الماضى والحال وحث وتحضيض على ما يكون فى المستقبل منهم ومن فى منزلهم من أهل العلم ، فان قصص القرآن ما كان ممن سلف انما هو عظة وعبرة وتحذير بالغ لمن حذا حذوهم وتنكب مسامهم .

ومثل لك قوله تعالى (ى/٤٢-٤٣) فى سورة « الأنعام » : « ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالباطاء والضرأ اعلمهم يتضرعون * فلو لا اذ جاءهم بأسنا تضرعون ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون » فانه وان كان الفعل الدخّل عليه (لولا) المفصول بينهما (باذ) مضارعا فانه لا يخفى انه فى قوة الماضى ، فدلالة المنطوق التنديد والتوبيخ على ترك التضرع اذ جاءهم البأس فان المرمى اليه حض الحاضرين وحثهم على التضرع فى مثل هذا ، فليس القصد الرئيس الى قص اخبار من مضى بل حث السامعين على تحصيل ما فات السابقين

فأرداهم ، فهي تنديم يتولد منه تحضيض وطلب بالغ للتضرع في الشدائد .

وقيل ان (لولا) هنا للتمنى على طريقة المجاز المرسل ويكون التمنى كناية عن الاخبار بمحبة الله الأمر المسمى ، فيكون من بناء المجاز على المجاز فتكون هذه المحبة هي ما عبر عنه بالفرح في الحديث « الله افرح بتوبة عبده » الحديث وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله في قوله (اذ جاءهم بأسنا تضرعوا) للاهتمام بمضمون جملته وأنه زمن يحق أن يكون باعثا على الاسراع بالتضرع مما حصل فيه من البأس « (١٥) وما هو على شاكلته قوله تعالى (ي/٩٨) في سورة يونس : « ولولا كانت قرية آمنتم فنفعها إيمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » .

فلولا فيه تنديمية سيقت لتحضيض الحاضرين على الايمان قبل معاينة العذاب كما فعل قوم « يونس » ، فظاهر السلم تنديم وتقبيح للقرية المهلكة ، وغايته تحذير وحث وتحضيض لاهل مكة على أن يكونوا كقوم يونس لا كقوم غيره من الامم الاخرى (١٦) وفي هذا اعراب عن اختصاص السورة باسم (يونس) وقد ذكرت اقوام غيره من الامم .

وكذلك قوله تعالى (ي/١١٦) في سورة هود . « فلمولا كان من القرون أو لو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتباع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » .

(١٥) التحرير والتنوير ٢٢٨/٧ (والحديث المذكور رواه الشيخان :

البخارى في الدعوات ومسلم في التوبة) .

(١٦) قد جاء في صدر السورة قوله تعالى « ولقد أهلكم القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم الجرمين ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (ي/١٣ - ١٤) .

فظاهر النظم أنه تنديم على فائت ، ولكن المراد غير ذلك الظاهر فانه لامعنى لتنديم من هلك على ما فرط بل هو الى تعجيب الحاضر من فعالهم وتقبيحها لهم فيتولد من ذلك التعليظ والتعجيب والتقبيح لما سنف الحث للحاضر على فعل ما فرط سلفه فأدلك به ففى الآية تحريض بداربى الزوم لهذه الامة وطلب بالغ وحث على أن يكون منهم بقية تنهى عن الفساد فى الارض فتكون متناغية فى معناها مع قوله تعالى « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) .

ومن الباب نفسه قوله تعالى (زى ١٢/ - ١٣) فى سورة النور : « لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك قديم * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذ لم ياتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » .

فان (لولا) هنا تنديم على ما كان منهم وتقبيح له يتولد منه تحضيض لهم ولما بعدهم أن يحرصوا على ما فرطوا فيه من قبل فى مثل تلك الواقعات ولو أن الامة من بعد وقفت على ذلك فظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا ولم يقولوا الا ببينة لما شاء فى الناس قول الفاحشة والرمى بها ، فلولا هنا تنديمية يتولد منها تحضيض وأمر بالغ بايجاد ما قبح فوته والتفريط فيه وهو فى الأولى ظاهر وفى الثانية تحضيض على الا يقولوا بغير دليل قاهر لا ينتقض .

ومما دخلت فيه (لولا) على ماض فكان فى قوة المصارع فى افادة التحضيض قوله تعالى (زى/ ١٢٢) من سورة « التوبة » : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

من بعد أن أمر الله عز وعلا الذين آمنوا بتقوى الله فى كل أمورهم وبأن يكونوا مع الصادقين بناصرة ومناصحة وتواصيا وتعاوننا وتكثير سيود ، ونهاهم ابلغ نهى عن أن يتخلفوا عن رسول الله وأن يرغبوا

بأنفسهم عن نفسه نهاهم أيضا نهيا بالغا عن أن ينفروا كافة لغزو أو غيره
فإن في النفور من الكافة كمثل ما في التخلف من الكافة من الأضرار
الذي لا يليق بمسلم أن يشارك في صنعه .

وفي نظم الآية وجهان من المعنى (الأول) أن النفور في الموضعين
واحد ، وهو النفور إلى الغزو ، والنفور وإن كانت دلالة عامة
في الانزعاج من الشيء أو إليه ، فإنه في البيان القرآني
إنما هو للنفور إلى الحرب ، فيكون المعنى في الآية ما كان المؤمنون
لينفروا إلى الغزو كافة ، فلولا نفرت إليه من كل فرقة منهم طائفة
وبقيت طائفة مع النبي صلى الله عليه وسلم تتلقى العلم وتتفقه لتتصدر
الفرقة النافرة إلى الغزو إذا رجعت إليهم وهذا الوجه أظهر اتساقا مع
الآية قبلها (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعداء أن يتخلفوا عن
رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) فإن فيه الوعيد البالغ لمن
تخلف فكان ذلك داعيا إلى أن يسارع كل مسلم إلى الغزو إذا ما دعا
الداعي إليه . فجاء قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) وكذلك
أظهر توافقا مع ما روى « الكلبى » عن « ابن عباس » من أنه لما أنزل
الله تعالى عيوب المنافقين لتخلفهم عن الجهاد قال المؤمنون : والله لا نتخلف
عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سرية أبدا فلما
أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسرايا إلى العدو نفر المسلمون
جميعا وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة فأنزل الله
تعالى هذه الآية (١٧) وكان النهى عن التخلف نهي الأولى حين يكون الرسول
صلى الله عليه وسلم خارجا بنفسه إلى الجهاد فلا يصح لأحد قادر على
الخروج أن يتخلف إلا من يكلفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبقاء في
المدينة فيكون في جهاد أيضا ، والنهي عن خروج الكافة وترك الرسول
صلى الله عليه وسلم وحده حين يكون الخارج غيره من السرايا التي كان
يبعثها ، وذلك هو المروي عن « ابن عباس » .

وهذا الوجه من فقه معنى النظم فى الآية يكون الضمير فى قوله (ليتفقوا) راجعا الى ما فهم من النظم قبله ، ولما كان ذلك المرجع المفهوم معربا عنه السياق لم تك حاجة الى التصريح به ، فكأنه قبل : وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفرت طائفة الى الجهاد وبقي آخرون ليتفقوا فى الدين ولينذروا قومهم النافرين الى الجهاد لعلمهم يحذرون .

وعود الضمير على ما يفهم من السياق نهج بيانى سالىح فى العربية حاضر فى الذكر الحكيم : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » (القدر / ١) وفى طى مرجع الضمير فى (ليتفقوا) عن الذكر اشارة الى أنهم ليسوا الاعلى ظهورا والاشد قوة والاكثر عددا فى الغالب فحاجة الجهاد الى الاكثر والاقوى تفوق حاجة تلقى العلم فقد يقوم به الشيخ وذو الحاجة والمرأة . وفى طى ذكر الباقي للتفقه والتصريح بذكر الخارجين الظاهرين مشاكلة بين الفعل والعبارة عنه لا تخفى ، وكذلك فى اصطفاء كلمة (طائفة) للخارجين النافرين الى العزو مشاكلة لفعلهم وحركتهم ونشاطهم ، وفى اصطفاء كلمة (قوم) مثل ذلك ذمهم القانمون بهذا الشرف العظيم .

والوجه الآخر فى معنى النظم يجعل الفعل فى قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) غيره فى قوله (فلولا نفر) فى الاوّل انفر الى الغزو والآخر نفر الى تلقى العلم . وفى اطلاق النفر على الذهاب الى تلقى العلم اما ان يكون مشاكلة لوقوعه فى صحبة لانزعاج الى الجهاد واما ان يكون استعارة بتشبيهه هذا بذلك فى المنزلة والناظر والحاجة الى صبر ومصابرة وتعاون وفى صورة الفعل (يتفقوا) ابناء الى حاجة العلم الى المصابرة . واما ان يكون استخداما على طريقة « اسامة بن منقذ » القائمة على ان تكون الكلمة لها معنيان فتحتاج اليها فتذكرها فتخدم المعنيين (١٨) واما ان يكون ذلك من قبيل استخدام اللفظ « المتواطىء » من ان النفر انزعاج مطلق الى أى شىء أو من أى شىء

فاستخدامه في الجهاد استخدام في أحد معانيه وكذلك في الذهاب إلى تلقى العلم ، وهذه وإن اختلفت في تخرير وصف استعمال الكلمة (ينفروا - نفر) فإن في جميعها إيحاء إلى أن الخروج إلى تلقى العلم احتسابا كالخروج في سبيل الله جهادا ، وفيه دعوة إلى القيام بحق تلقى العلم والهدى ، وأعراب عن منزلة التفقه في الدين وتبليغه ، وإن في الرغبة عنه أضرارا كمثل الذي في الرغبة عن الجهاد ، فإن بهما قوام الدعوة إلى الله عز و علا وانتصار الإسلام وترسيخ حكمه واتساعه . وعلى ذلك تكون (لولا) للتحضيض على النفر إلى طلب العلم ، ويكون قوله (ليتفقهوا) متعلق بقوله (نفر) والضمير فيه للطائفة النافذة وفي الاتيان بالضمير مذكرا جمعا (واو الجماعة) سراعا لمعنى الطائفة الأخرى ، فانهم غير قليل أيضا وإيحاء إلى حاجة التفقه إلى الفؤاد والمذكورة العزيمة وإلى الاجتماع عليه فهو من الأعمال التي ثمره أداؤها الجمعي أكرم أوفر من ثمره أداؤها الفردي ، فتلقى العلم ومدارسه والبحث فيه والقيام له وبه من جماعة أعظم نفعا من أن يكون من قام له أو به منفردا وذلك شأن أعمال الخير كلها .

والضمير في (لينذروا) و (رجعوا) يعود إلى ما عاد إليه الذي في (ليتفقهوا) أما الضمير في (اليهم ولعلمهم يحذرون) فانه لثوبهم أي للطائفة التي لم تنفر للعلم .

والخطاب على هذا الوجه إنما هو لمن كان بعيدا عن المدينة بموطنه ، فينفر إلى المدينة ليتفقه فيعود إلى أهله فينذرهم . أو لمن كان من أهل المدينة وقد بعد عنها بفقر فتنفر منهم طائفة إلى المدينة لتفقه ثم تعود إلى أصحابها في غزوها تعلمها وتنذرهم لعل هذه الطائفة المراقبة خارج المدينة لاجتهاد تحذر ما يمكن أن يكون فيه مخيالة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

هذه وجوه يحتملها لنظام وقد أقيم على هذا النحو عن الإبانة كيما يكون فيه الهدى لكل ، فكل وجه واقع من جماعة فيكون لها الهدى في الآية (٩ - صورة)

دونما تناقض فانه الذكر الذى لا يخلق على كثرة الرد ، وذلك وجه من وجوه اعجازه فى الابانة عن الهدى فيه .

ومما كانت فيه (لولا) تحضيضية معربة عن معنى الأمر البالغ فى الطلب قوله تعالى (ي/٤٥ - ٤٦) : « فى سورة « النمل » حكاية عن سيدنا « صالح » : « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » فان معنى الحث على الاستغفار وطلبه منهم جد واضح فى قوله « لولا تستغفرون الله » فهو فى قوة قوله (استغفروه) الذى جاء فى سورة « هود » (ي/٦١) « والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشاكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب » .

وكذلك قوله تعالى فى سورة الواقعة (ي/٥٧) « نحن خلقناكم فلولا تصدقون » فان معنى التحضيض والحث على التصديق بالبعث جد واضح فيه ، وهو لا يأمرهم بالتصديق بأنه هو الذى خلقهم فانهم غير مكذبين وانما هم مكذبون بالبعث « وكانوا يقولون ا اذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون » (الواقعة / ٤٧ - ٤٨) فبين لهم أن الذى خلقهم أولا هو خالقهم ثانيا ، وأمرهم بتصديق ذلك وحتم عليه ، وجاء من بعد ذلك بقليل قوله تعالى (ي/٦٢) ، « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » وهو حث بالغ على أن يتذكروا ذلك ويعلموا منه أن الذى أنشأهم أولا هو باعثهم آخر . وجاء كذلك قوله من بعد ذلك (ي/٦٨ - ٧٠) « أفرايتم الماء الذى تشربون * أنتم انزلتموه من انزن ام نحن المنزلون * لو نشاء جعلناء أحاجا فلولا تشكرون » وهو حث وحض دأمر بالغ بشكر الله تعالى على نعمة الماء الذى به قوم الحياة ، فهو أمر ممزوج بالتوبيخ على عدم فعله قبل الحض ، وكأنه مما لا تحتاج النظرة السوية على أن يحض صاحبها عليه بل يقوم به قبل ذلك .

وكذلك مما كانت فيه (لولا) تحضيضية قوله تعالى (ي/٢٨) حكاية عن أوسط أصحاب الجنة فى سورة القلم : « فلما رأوها قالوا

انا لصالون ﴿ بل نحن محرومون ﴾ قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴿ قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين ﴾ .

غير خفى ان (لولا) حين قالها أوسطهم أولا انما هى تحضيضية حيث طلب منهم أن يسبحوا الله عز وعلا أى تنزموه عن أن يعصى بحرمان المساكين من الزكاة . يقول « الزمخشري » : (لولا تسبحون) لولا تذكرون الله وتنبون اليه من خبث نيتكم ، كان أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك : اذكروا الله وانتقامه من المجرمين ونوبوا عن هذه العزيمة الخبيثة من فوركم وسارعوا الى حسم شرها قبل حلول النقرة فعصوه فغيرهم ، والدليل عليه قولهم : سبحان ربنا انا كنا ظالمين فتكلموا بما كان يدعوهم الى التكلم به على اثر مفارقة الخبيثة ، (١٩) .

وغير خفى أن جعل (لولا) تحضيضية انما هو حين قالها أول مرة أما وهى فى حيز القول المستفهم عنه فانها تنديمية توبيخية تتناغى مع دلالة الاستفهام فى (ألم أقل لكم) .

وغير خفى أيضا أنها وهى تحضيضية ليست من معنى الامر الذى حققناه لأن أوسطهم ليس عاليا ولا مستعليا بل هى اى الارشاد والتنبيه اقرب .

مما مضى تبين لنا مواقع (لولا) غير الشرطية وما كان منها دالا على تحضيض يتولد منه معنى الامر وما كان منها غير ذلك .

(رابعاً) دلالة الأمر أو النهى استلزاماً على ضده

(١) (النهى عن شيء تحريماً يستلزم الأمر بضده) :

لقيت دلالة « النهى » عن شيء على « الأمر » بضده اختلافاً بين أهل العلم اكتفى بذكر أهم ما قيل مصطفىاً ما هو الأعلى .

✽ ذهبت طائفة الى منع أن يكون النهى عن شيء معين أمراً بضده لا عينا ولا تضمنياً (١) فالذى ينهى آخر عن النوم : (لا تتم) لا يعدو قوله هذا دلالة على كفه عن النوم ، وليس فيه دلالة على غير ذلك ، بل للدلالة على غيره طريق لغوى آخر ، ولذا كثر الجمع بينهما وتطفأ أحدهما على الآخر .

✽ وذهبت ثانية الى أن النهى عن شيء معين هو أمر بضده عينا (٢) أى أن كلا منهما عين الآخر أى أن الطلب واحد ، وهو بالنسبة الى الشيء نهى والى صفة أمر ، ذلك أن ما دل على شيء هو دال على ما هو من ضروراته .

✽ وذهبت ثالثة الى أن النهى عن شيء معين ليس أمراً بضده عينا ولكنه يتضمنه (٣) ذلك أن النهى طلب امتناع عن هذا الشيء المعين ، فيلزمه طلب فعل ما هو ضده ضرورة أن الامتناع عن شيء ينزله فعل ضده .

- (١) من هذه الطائفة الجوينى والغزالى وابن الحاجب وبعض الشافعية وجمهور المعتزلة راجع : المستصفى ٨٢/١ ، البرهان للجوينى ٢٥٠/١ - ٢٥٤ ، المسودة ٧٣/١ ، بيان المختصر ٤٩/٢ ، فوائج الرحمة ٩٧/١ (٢) من هذه الاشعرى والباقلانى فى أحد قوليه . راجع المسودة / ٧٣ ، بيان المختصر ٥٠/٢ ، لتقرير والتحجير ٣٢١/١ .
- (٣) من هذه الشافعى ومالك وجمهور الحنابلة والأحناف والباقلانى فى أحد قوليه ، راجع المسودة ٧٣/١ ، بيان المختصر ٥٠/٢ ، القواعد والفوائد ١٨٣/١ .

✽ وذهبت رابعة الى أن النهى عن شيء معين دال على الأمر بضده المعين تضمينا اذا ما كان له ضد واحد فان كان له أضداد كثيرة فانه يتضمن أمرا بواحد منها من غير تعيين (٤) فمن قال بغيره (لا تتم) فله أن يقف أو يجلس أو يسجد أو يركع .

✽ وذهبت خامسة الى أن النهى عن شيء معين دال على الأمر بضده اذا ما كان له ضد واحد فان تعددت الاضداد لم يدل على الأمر بشيء منها (٥) .

✽ وذهبت سادسة الى أن دلالة النهى على الامر بضده خاص بالنهى التحريمى (٦) .

والذى هو أولى بالاصطفاء أن النهى تحريما عن شيء معين يتضمن الأمر بنقيضه على سبيل الوجوب ، فدلالته عليه ذات قيود ثلاثة : أن يكون النهى تحريما ، أن يكون المهلول على الأمر به هو النقيض ، أن سبيل الدلالة عليه الاستلزام .

فان كان للنهى عنه تحريما أضداد عدة فان النهى يدل على الأمر بواحد منها ، والسياق يحدد واحدا منها فمن قال لابنته (لا تجلس) فان كان ابنه مريضا مثلا فان ذلك يعرب عن أمره باليوم ، وان كان الحال تأديبا له فذلك يعرب عن أمره بالوقوف فان نام كان كالجنوس المصرح بالنهى عنه ، يعصى به .

(٤) من هذه الشيرازى والكلوذانى راجع شرح النعم ٢٦٣/١ ، ٢٩٦ ، لتلويح ٤٣٠/١ الفصول ١٦١/١ - ١٦٢ ، التمهيد للكلوذانى ٣٣٤/١ ، ٣٦٤ .

(٥) ينسب لأبى حنيفة راجع المسودة ٧٣/١ ، التمهيد لأبى الخطاب ٣٦٤/١ ، التلويح ٤٣٠/١ ، الفصول ١٦١/١ .
(٦) راجع فواتح الرحموت ٩٧/١ .

وإذا ما نظرنا في البيان القرآني رأينا أن الذي هو آنس به أن
النهى عن شيء تحريما يتضمن الأمر بضده وكثيرا ما يكون النظم مسوقا
لمعنى النهى سوقا أصليا ، ويفهم الأمر بدلالة المفهوم ، وإذا يصرح بذلك
المأمور به بدلالة المنطوق في موطن آخر كما هي سنة البيان القرآني
يذكر الشيء في سياق تصريحه ويسوق النظم إليه سوقا أصليا ، فتكون
الدلالة عليه دلالة منطوق صريح ، وفي سياق آخر يدل على ذلك الشيء
بنفسه دلالة مفهوم ، وفقا لما يفترضه السياق ، وهذا كثير لا يخفى .

وقد يصرح المأمور به ضمنا بعد النهى المستلزم له ويعطف عليه
ومقتضى الظاهر أن يفصل بينهما لما بينهما من الاتصال ولكنه يعدل
عن ذلك لأمر يرجع إلى المعنى نفسه أو إلى المخاطب أو يكون فيه ما يجعله
زائدا على ما عطف عليه حتى أنه غيره ، ففصل اللازم عن المنزوم والمؤكد
عن المؤكد ليس حتما في كل سياق فانه الأصل وقد عدل عنه لما يقضى
به الحال ، وما هذا بموطن تفصيله .

ومن سنة البيان القرآني أنه قد ينهى عن شيء والنظم مسوق
لأمر بضده سوقا أصليا فيجعل النهى عن ذلك الشيء سبيلا لأمر
بضده ، فيكون من قبيل الدلالة الكنائية .

والشاطبي لا يرى أن النهى عن شيء يمكن أن يكون مقصودا به
الأمر بضده على سبيل القصد الأول ، بل أن يكون عنده على سبيل
القصد التبعية (٧) من أن مذهبه قائم على أن معنى المعنى لا يكون سبيلا
إلى الدلالة على معنى رئيس وحكم تأسيسي ، بل هو تأكيدى عنده .

والذي هو آنس بالبيان القرآني غير ما ذهب إليه « الشاطبي » فقد
يقصد بالنهى عن شيء الأمر بضده قصدا أصليا ، ويكون النظم مسوقا
له أصالة ، وذلك ما تراه في نحو قوله تعالى : « ولا تكونوا أول كافر
به » (البقرة / ٤١) فليس يخفى أن السياق ليس لنهيهم عن أن يكونوا

(٧) الموافقات ١٠٣/٢ وانظر كتابي سبل الاستنباط ٤٣٨ وما بعدها

أول كافر به ، بل القصد الى الأمر بالمبادرة الى الإيمان به . • والمنعنى
ليكن كل واحد أول من آمن به ، (٨) ذلك أن : قرينة السياق دالة على
أنه لا يراد تقييد النهى عن الكفر بحالة أولبتهم في الكفر ، بل ليس
المقصود منه مجرد النهى عن أن يكونوا مبادرين بالكفر ولا سابقين به
غيرهم لقلة جدوى ذلك ، ولكن المقصود الأهم منه أن يكونوا أول
المؤمنين ، فأفيد ذلك بطريق الكناية التلويحية فإن وصف (أول)
أصله السابق غيره في عمل يعمل أو شيء يذكر ، فالسبق والمبادرة من
نوازم معنى الأول ، لأنها بعض مدلول اللفظ . ولما كان الإيمان والكفر
تقيضين إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر كان النهى عن أن يكونوا أول
الكافرين يستلزم أن يكونوا أول المؤمنين ، (٩) فإن السياق الى الإبلاغ
في أمرهم بالسبق الى الإيمان وكان طريق الكناية أقوى في اثبات ذلك
من أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه وقد نهيت عن أن تسرع الى
الكفر وأن تكون أول الواقعين فيه أن ذلك الحجاز المنيع والدافع العظيم
الى الاسراع بالقيام بما هو عاصم من مقاربة ما نهى عنه ، فهو أكد وأبلغ
من أن يدعى الى الاسراع الى الإيمان والسبق اليه ، وأنه ليس الذي
يراد منه الإيمان بل الاسراع اليه والاعتصام به والتحقيق له تحقيقاً
لا يبقى بينه وبين الكفر مظنة اقتراب بل ولا حسبة اشتباه فالنهي عن
الشيء أقوى في الدعوة الى الاعتصام منه وإلى مجانبته من الأمر بنقيضه ،
فالنهي كف عن فعل لا يتعلق بالوسع والاستطاعة المتفاوتين ، والأمر
بإيجاد فعل لا يكون الا بقر الوسع « اذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا
أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » الحديث (١٠) من ثم كان اخراج الأمر
بالسبق الى الإيمان به في صورة النهى عن أن يكونوا أول كافر به
أبلغ وأكد وأنس بالسياق والغاية •

(٨) حاشية الكارثوني على تفسير البيضاوي ١٤٨/١ •

(٩) التحرير والتنوير ٤٦٠/١ •

(١٠) صحيح البخاري : الاعتصام (فتح الباري ٢٢٢/١٣) وصحيح

مسلم : حج - حديث رقم ١٣٣٧/٤١٢ •

ومن هذا الضرب قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (آل عمران / ١٠٢) .

النهى فى الآية كناية عن الأمر بالاسلام لله رب العالمين ، لأن المخاطبين لا يملكون إيقاع الفعل المنهى عنه أو عدم إيقاعه بالتصدد الرئيسى فالذى يقضى به لسياق الدعوة بملازمة اسلام الوجه لله عز وعلا فى كل حال من أحوالهم وليس الأمر بالدخول فى الاسلام بالانتقال من شرك أو الحاد الى توحيد الله عز وعلا المعبر عنه بالشهادتين ، ذلك ان المخاطبين على ذلك الاسلام فهم المنادى عليهم بفعل الايمان فى الآية « يا أيها الذين آمنوا » فالمدعو اليه هنا اسلام يعلى بصاحبه فوق درج التقوى انه درج التسليم المطلق لله رب العالمين تسليما لا ينقطع ولا يفتر . وجاء طلب ملازمة اسلام الوجه له جل جلاله فى صورة نهى عن الموت على غيره اعرابا عن وجوب الجزم فيه وقطع الترخص وانتفاوت ، فاذا كانت التقوى وهى فى مدرجة الطاعة والقرب دون التسليم المطلق لوجه الله عز وعلا قد قيل فيها (حق تقاته) وهى التى دونها خرط القناد وتقطع الأعناق فان ما هو أسمى منها وهو اسلام الوجه أحق بالابلاغ نى طلبه فكان ما عليه النظم أوفى بحقه .

فالنهى كما ترى قد يأتى والمقصود الرئيس منه الأمر بضد ما نهى عنه . اما أن يكون النهى هو المقصود الرئيس والأمر بصدده لازم له فذلك لا يكاد يخفى وهو كثير جدا فى الذكر الحكيم .

(ب) (الأمر بالشيء وجوبا يستلزم النهى عن ضده) :

المذاهب التى سبق ذكرها فى استلزام النهى بشيء معين الأمر بضده هى التى عليها أهل العلم فى استلزام الأمر بشيء معين وجوبا النهى عن ضده (١٠) الا أن ثم أمرين مختلفين :

- (١٠) البرهان للجوينى ٢٥٠/١ ، المحصول ج ١ ق ٢ ص ٣٢٤ ، المستصفى ٨١/١ - ٨٢ ، المعتمد لأبى الحسين ٩٧/١ - ٩٨ ، لأحكام للأمدى ٢٥٢/٢ ، التلويح ٤٣٠/١ ، أصول السرخى ٩٤/١ ، شرح الكوكب المنير ٥١/٣ - ٥٤ ، السيد على الكشاف ٢٢/١ ،

« الأمر الأول » انه اذا كان المأمور به وجوباً له أضرار كثيرة فانه يستلزم النهى عن جميع تلك الأضرار ضرورة أنه لن يكون طبعاً لما صرح له بالأمر به الا اذا ترك كل فعل يناقض القيام من جالس ونوم وركوع وسجود واضطجاع ٠٠٠ الخ وهذا مخالف لما اذا كان المصرح بالنهى عنه له اضرار كثيرة فان السياق يستلزم أمراً بواحد من هذه الأضرار ، فان فعل شيء من تلك الأضرار محقق لما صرح بالنهى عنه ، ولذا فان ذكر الأمر من بعد التصريح بالنهى عن ضده فائده غير فائدة ذكر النهى من بعد التصريح بالأمر بضده اذا ما كانت الأضرار عديدة فى الحالين : قولنا : لا تنم واجلس غير قولنا اجلس ولا تنم : (فى الأول) كان ذكر (اجلس) بعد النهى عن النوم يجمع الى تأكيد النهى عن النوم تخصيص ما أبيح من الأضرار ، فان للمخاطب قبل عطف الأمر (اجلس) على النهى أن يفعل غير الجلوس ليكون محققاً للنهى عن النوم (وفى الثانى) كان ذكر (لا تنم) تأكيداً للجلوس فهو يضيف قوة الى طلب الجلوس فصار الأمر بالجلوس بالغا ، فانه حينئذ (قاله) لكان عامياً وهذا فيما كانت أضراده عديدة ، وله فوائد غير ذلك اذا ما كان الضد واحداً .

ومثل هذا ينفع ان شاء الله فى فقه دلالة عطف النهى على أمر تضمن الدلالة عليه ، وفقه دلالة عطف أمر على نهى تضمن الدلالة عليه فى الذكر الحكيم فى حالى تعدد الأضرار وعدم تعددها ، وهو باب واسع فى فقه الدلالة ليس هذا البحث معقوداً له فيبسط القول فيه .

« الأمر الآخر » أن من أعمل العام من قال بأن الأمر بالشئ نهى عن ضده ولكنه سكت عن أن يكون النهى عن شئ أمراً بضده وبعضهم صرح بمنعه (١١) وفى هذا تفریق بين استلزام الأمر النهى عن الضد واستلزام النهى الأمر بالضد ويبدو لى أن ذلك من أن النهى كلف والأمر فعل والكلف لا يستلزم فعل النقيض فان الكلف عن الاسائة مثلاً ليس

(١١) ينظر بيان المختص ٥٠/٢ ارشاد النجول ص ١٠٢ .

فعلا للاكرام بينما فعل الاكرام كف عن الاساءة فان قيل : لا تكذب فان ترك الكذب قد يتحقق بالصمت عن الحق والباطل معا فلا ينطق ولا يمكن ان يقال انه عصى النهى ولا يقال انه صدق .

والذى هو حق ان البيان القرآنى لا انفصال فيه بين التصريح بالنهى واستلزامه الأمر بضد النهى عنه ، والتصريح بالأمر واستلزامه النهى عن ضد المأمور به ، الا أن السياق يقضى حيناً بإيراد المأمور به مورد الكناية فيصرح بالنهى عن ضده ، وحيناً بإيراد النهى عنه مورد الكناية فيصرح بالأمر بضده وقد يجمع بين التصريح بالنهى عن الشئ والتصريح بالأمر بضده ويعطف أحدهما على الآخر ، وقد يقدم الأمر بشئ ويعطف النهى عن ضده وقد يكون عكس ذلك . ويظهر لى أن عطف النهى على أمر تضمنه أكثر فى البيان القرآنى من عطف الأمر على نهى تضمنه ويكثر هذا فيما كان المصرح بالأمر به أولاً ذا شأن بالغ يراد الاعراب عن وجوب الاحتفال به والاعتناء بحقه واستفراغ الجهد فى إيقاعه ففى قوله تعالى مثلاً : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون » (البقرة / ١٥٢) عطف قوله (لا تكفرون) على قوله (اشكروا لى) وهو منضمن له فان شكر النعمة يستلزم الكف عن ضد الشكر ، وهو تكفر النعمة . فى التصريح بالنهى عن الكفر دلالة على وجوب استقصاء جميع ضروب شكر النعمة ، واستمرار هذا الشكر ، فان شكر النعمة قد يكون بالاسان وقد يكون بعدم تبذيرها وبحسن اتفاقها والتصدق بها فحتى لا يقتصر على وجه من وجوه الشكر صرح بالنهى عن كفرانها لأن من ترك وجهاً من وجوه الشكر وقع فى وجه من وجوه كفران النعمة والفعل فى سياق النهى والنهى كالنكرة يعم كل ضروبه وفى الوقت نفسه يستلزم الدوام عليه فان وقع فيما نهى عنه فى وقت فقد عصى بينما المأمور به ان فعله مرة حقق الأمر ، فكان فى التصريح بالنهى عن النقيض الذى تضمنه الأمر السابق وعطفه عليه فائدة تأسيسية تضاف الى فائدة تأكيد دلالة الأمر المصرح به فى صدر العبارة .

وفى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »
(آل عمران / ١٠٣) عطفاً قوله (لا تفرقوا) على قوله (واعتصموا)
الأمر بالاعتصام بحبل الله إنما هو أمر على نحو خاص هو الاعتصام
الجمعى ، ولا يكفى فى تحقيقه اعتصام كل فرد من الأمة بكتاب الله وسنة
نبيه صلى الله عليه وسلم أو بالاسلام عتيده وشريعة فان ذلك لا يحقق
المأمور به . بل الأمر منظور فيه الى الاعتصام الجمعى المتحقق من
تمسك كل فرد بالكتاب والسنة فى نفسه وفى من يتولى الولاية عايه
ومن مناصرة ومناصرة بقية الأمة والتواصى بالحق والصبر وبالذبح
عنها والذب عن حرماتها وتقوية شوكتها وتكثير سوادها فينتصر كل أخاه
ويحفظه فى غيبته ويؤازره فى دعوته ويناصحه ويتعاون معه على الخير
والتقوى . تلك حقيقة ما هو مأمور به فى قوله (واعتصموا بحبل الله
جميعا) فان قوله (جميعا) عنصر رئيس فى بناء معنى الأمر لا يتحقق
بغيره . ولما كان ذلك قد يغفل عنه أو يتهاون فيه ، فيظن أن الجمعية
فى الاعتصام ليست ركناً ركيناً لا يتحقق الأمر بغيره نجاء قوله (ولا
تفرقوا) مصرحاً بالنهى اعلماً بأن الاعتصام الجمعى هو الغاية ، ففى
النهى عن التفرق دلالة نصية على وجوب الجمعية التى كانت الدلالة عليها
دلالة ظاهرية محتملة القطعية والظنية . وفى هذه الآية انكار بالغ على من
يظن فى التزامه الفردى تحقيقاً للاعتصام بحبل الله دولما التيام بالمناصحة
والمناصرة والتواصى الذى به يتحقق الوجود الحق للأمة وبه ينشكك
الكيان الراضخ لها وأنصار الباطل وبطانة الطاغوت يعرفون ذلك ، ولذا
لا يقاومون التمسك الفردى بالكتاب والسنة ، وينادون دائماً انهم
لا يمنعون الناس من الصلاة والعبادات ، لأنهم يعلمون أن أثر ذلك عليهم
غير عظيم ، ولكنهم يقاومون الاعتصام الجمعى والتناصر بالحق والتواصى
بالصبر عليه ، فان فيه تقريضا لباطلهم .

(خامسا) الاخبار عن الفعل أو صاحبه

هذه الصورة تختلف عن الصورة الأولى من هذا الصرب فتتك اخبار
بالفعل وهنا اخبار عنه ، وهذه أيضا نمطان الأول معرب عن أمر والآخر
معرب عن نهى :

(١) الاعراب عن الأمر بالشئ بالاخبار عن الفعل أو صاحبه وذلك
بمدح الفاعل أو ترتيب الاثابة عليه أو الاخبار بمحبته أو دم تارك
الفعل أو ترتيب عقوبته على تركه أو الاخبار ببغض تاركة ٠٠٠ الخ تلك
التراكيب التى يفيض بها الذكر الحكيم فهى دالة استلزاما واستتباعا
على طلب الفعل (١) ففى قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى
سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (الصف / ٤) دالة استلزامية على
الأمر بالمقاتلة فى سبيله مقاتلة متحدة صامدة متماسكة وهى مناظرة
لما أشرت اليه فى قوله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .

وكذلك قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على
الكفار رحماء بينهم » (الفتح / ٢٩) فيه دلالة استتباعية مدحهم والثناء
عليهم على طلب أن يكون اتباع النبى محمد صلى الله عليه وسلم أشداء
على الكفار رحماء بينهم ، وكان فى الجمع بين وصف امام الأمة سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رسول الله ووصف الذين آمنوا معه دلالة
على أن وصف كل انما هو وصف كاشف عن جوهره وحقيقته ، فما بعد
قوله (محمد) كاشف عن حقيقته ووظيفته وما بعد قوله (الذين آمنوا
معه) كاشف عن حقيقتهم التى يطلب الله منهم أن يكونوا عليها ملازمين
لها محققين لها فان فى ذلك تحقيق وجودهم وتكوين شخصيتهم . واذا
ما كان الامام والقُدوة قد قام بوصفه حق القيام وكذلك امرجابه فان على
من جاء من بعد ذلك أن يقوم بهذين الوصفين خير قيام : أشداء على الكفار

(١) ينظر المهرهان للزركشى ١٠/٢ ، موافقات للمصطفى ١٥٥/٣ .

رحماء بينهم واقتراب أى مجتمع من هدى الاسلام اجتماعية وبتعباده منه
انما معياره هو هذان الوصفان (أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

والآيات المخبرة بحب الله فعلا أو صاحبه أو ترتيب ثواب عليه
أو ثناء على صاحبه الى غير ذلك انما هي آيات كثيرة ، وبالنظر فيها بدأ
لنا أن هذا النمط من الاعراب عن طلب تلك الأفعال انما هو فى الكثير
الغالب لما كان قد صرح بطلبه وأخرجه فى صورة طلب مريح فى سياق
آخر . وهو حين يعرب عن طلبه بالاخبار بحبه أو حب صاحبه أو الثناء
عليه انما هو نمط من الحث على ايقاعه على سبيل الرغبة فيه والدفع الى
السعى الى القيام بمحسوب الله فتكون عبادة حب ورجاء وهو مقام من
المقامات التى يحب الله أن يقوم فيها عباده .

ومثل ذلك الاخبار يغلب عليه فى الذكر أن يكون اعرابه عن الأمر
على نهج ما لم يسق النظم له فأكثر ما يكون فقهه بسبيل دلالة الاشارة
وهو سبيل قويم من سبل استنباط المعانى من بيان الذكر الحكيم .

(ب) الاعراب عن النهى عن الشئ بالاخبار عن الفعل أو صاحبه بدم ذلك
الفعل أو فاعله أو ترتيب عقوبة عليه أو اخبار بانتفاء حبه الى غير ذلك
مما يفهم منه ان الله ينهى عن فعله (٢) . وهو كذلك كثير فى الذكر الحكيم

يقول الحق عز وعلا : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من
ظلم وكان الله سميعا عليما » (النساء / ١٤٨)

فصيغة (لا يحب) وان تكن اخبارا بانتفاء حب معمون الفعل (الجهر
بالسوء من القول) فانه يلزمه تحريم ذلك المنفى حبه فهو فى معنى
(لا تجهروا بالسوء من القول) الا أن التنفير فيما عليه النظم أعلى من

التصريح بالنهي فما عليه النظم فيه تصوير لمن يقدم على ذلك في صورة من هو مقدم على ما يفضب الله فهو ملق بنفسه في التهلكة فيكون ذلك ادعى الى النفور .

وكان اصطفاء هذا النمط من الاعراب عن النهي عن ذلك العمل من أن أثر الجهر بالسوء من القول في تنافر الأمة جد عظيم ، فكلمة السوء جد فاعلة في قطع الأواصر ، والسورة سورة تواصل الأرحام وأعلاها رحم الاسلام ، فنفر الله عز و علا من ذلك ، ولكنه رخص لمن كان مظلوما أن يجهر بما ليس فيه عدوان وبما ينفس عما في صدره من ضيق لظلمه درءا لما هو أشنع فقد يؤدي كتم قول السوء في صدر المظلوم الى الاقدام على فعل لا يليق فرخص له كما رخص للمسلمين التخاصم الى ثلاث . ولكنه لما رخص للمظلوم أن يجهر - دونما عدوان - يقول السوء لمن ظلمه جاء بقوله وكان الله سميعا عليما تحذيرا من الاعتداء في الجهر ممن كان مظلوما وترغيبا له في أن يكتم فان الله سميع عليم بما كان من ظالمه ثم نذبه الى الخير والعفو « ان تبدو خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا » وذلك أيضا نمط من أنماط الامر بالخير والعفو عن السوء .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « مثل الذين حماوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » (الجمعة / ٥) .

في سياق سورة « الجمعة » المسماة باسم اليوم الذي عرض على اليهود فلم يقبلوا واختاروا « السبت » فكان وبالا عليهم ، جهالة وهم أمل كتاب ، وردا لاختيار الله وهم الزاعمون أنهم أحباء الله . في سياق هذه السورة جاء من بعد استفتاحها بامتنان الله على هذه الأمة أن بعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وأخبر أن ذلك فضل يؤتيه من يشاء فكان لهذه الأمة - فجاء قوله « مثل

الذين حملوا التوراة » تحذيرا لهذه الأمة التي أوتيت من الفضل ما لم يؤت مثلها حتى لا تقع فيما وقعت فيه اليهود حين أعطيت فضلا فردته ، وحين حملت فضلا فلم تنتفع به ، فكان هذا التمثيل البديع البالغ من تحقيق وإزدراء ما وقعت فيه يهود أبلغا في نهى هذه الأمة أن يكون جهدها في حمل كتاب الله ودرسه واستفراغ الجهد في تفصيل وتحليل ما فيه من هدى وجمال في شتى مناحي الحياة ثم لا يكون له في حياتهم وحركتها أثر فاذا الانفصام المقيت البالغ بين الواقع المتكبر والواقع السلوكي ، فاذا هم أئمة في فقه الدين ولكنهم الغائبون النافرون في فقه التدين ، فمثل هؤلاء مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .

أى تنفير من الوقوع في مثل هذا الذي لا يقوم عليه عاقل أبلغ منه ؟

إنه البيان البالغ في التحذير والنهي عن التلبس بشيء من ذلك المثل ذلك ما المعنى الذي نحن اليه قاصدون وله قائمون وللسنا الى ما في هذه الآية من خصائص التمثيل البديع .

المهم أن النهي عن حمل كتاب الله دونما انتفاع به إنما جاء على هذا النحو البياني : اخبار عن حال اليهود مع التوراة ، وحكم على ذلك ذلك الحال ، إنما كان لأنه لا يحمل النهي عن حمل الكتاب دونما انتفاع به فحسب بل هو يجمع اليه الابلاغ في تحقير حالهم والتشجيع به والتنفير منه والازدراء له ، فيقتلع من القلوب التطلع الى ما كان عليه يهود ، وهم الذين كانوا مناط تطلع العرب ، فكان قوله (بشئ) مثل القوم الذين كذبوا) اجمالا بالغا في التنفير منهم ونهيا عن الاقتداء بهم .

والقرآن حين يعمد الى ذم أفعال وأصحابها أو يتوعد عليها أو يزن مصير الخسران بها والنجاة يتركها واجتنابها إنما يضرب على أوتار النفس فيلهبها رعبا وجزعا من التردى فيما ذم أو توعد فرارا مما ذم الى ما أحب ورضى ليكون العبد حيث يحب الله له أن يراه جعلنا الله عزوعلا حيث يحب منا أن نكون .

(أما بعد)

فان صورة الأمر والنهى فى الذكر الحكيم ذات تنوع يتناغى مع ما يؤمر به وما ينهى عنه ومع من يؤمر بذلك أو من ينهى عنه ومع السياق المقالى والمقامى الذى تورد فيه الصورة .

وليس التصريح بالأمر أو النهى أقوى دائما من الكناية عنه فان بعض صوره غير الصريحة أقوى فى طلب الفعل أو الكفر عنه ، وان كانت دلالة الصيغة على معنى الأمر أو النهى أظهر وأقرب ادراكا ، غير أن ما كان ظهورا ليس بلازم أن يكون أقوى فى الدلالة ولكل مقام وسياق، فان تمام الدلالة ليس فى ظهورها دائما فان للسياق مقالا ومقاما فى هذا نسلطانا .

وادراك دلالة الصورة على معنى الأمر أو معنى النهى قد يحتاج الى ضرب من اللقائية لا يملكه إلا ذو بصيرة نافذة ، وأحوج من ادراك دلالة الصورة الى هذا الضرب ادراك اقتضاء السياق تلك الصورة وتناغيها معه وأنسها به ، ونبو غيرهما عنه ، فقد يكون فى ادراك دلالة الخبير أو الاستفهام على معنى الأمر أو النهى شئ من اليسر أما ادراك أنسه بمقامه فذلك الذى لا يتأتى لتمام الصواب فيه الا ذوو البصائر والا أقوام طبعوا على الذائقة الصافية المألقة فنا من المعرفة فى ذوق الكلام وما يأنس فيه وما يتناغى معه .

وانى لا أزعم أنى قد قمت بحق هذا ولكنى أوقن أنى قمت له واختلفت وصابرت ، وأوقن أن من صور الأمر أو النهى ما غفلت عنه ، فذلك باب واسع التصرف بعيد الغاية دقيق المسلك لطيف المآخذ .

وهو على الرغم من ذلك كالمقدمة الى باب فقه دلالة الأمر والنهى فى الذكر الحكيم ، ففى ذلك الفقه عون بالغ على ما يحب الله من عباده ويرضى وما لا يحب أن يكون منهم فيكون العبد من الذين قال فيهم « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمنه والحمد لله رب العالمين .

فهرس اهم المصادر والمراجع

- ١ - ابراز المعانى فى القراءات السبع ، لابن شامة - تحقيق ابراهيم عطوة طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٤٠٢هـ .
- ٢ - ارشاد العقل السليم (تفسير ابي السعود) ط/١٣٩٣ - بيروت .
- ٣ - اصول السرخسى لابي بكر السرخسى . ت / الافغانى - ط/١٩٧٢
- ٤ - الاصول فى النحو لأبي بكر بن السراج ت/ عبد الحسين القتلى - ط/ ١ سنة ١٤٠٥ - مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ٥ - الأطول شرح التلخيص للعصام الاسفرياني - طبعة تركيا .
- ٦ - أنوار التنزيل (تفسير البيضاوى) :
 - ١ - حاشية الشهاب : دار صادر بيروت - مصورة .
 - ب - حاشية الكازرونى : بيروت مؤسسة شعبان .
- ٧ - البحر المحيط لأبى حيان الاندلسى - ط / ٢ سنة ١٤٠٣ - دار الفكر - بيروت مصورة أوفيسيت عن ط // السعادة بالقاهرة
- ٨ - البرهان فى اصول الفقه لامام الحرمين الجوينى - تحقيق الدكتور عبدالمعظم الديب - قطر سنة ١٣٩٩ .
- ٩ - البيان فى غريب اعراب القرآن لابن الانبارى ت / طه عبدالحميد طه القاهرة سنة ١٤٠٠ - الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ١٠ - البيان فى اعراب القرآن للعكبرى (المسمى بالاملاء) ط // سنة ١٣٨٩ - المكتبة التوفيقية - القاهرة .
- ١١ - التحرير والتنوير للطاهرين عاشور - الدار التونسية للنشر
- ١٢ - التلويح على التوضيح للسعد التفتازانى (طبعة صبيح)

١٣ - الحجة في علل القراءات السبع لابی علی الفارسی - ت / علی النجدي وآخرين ، القاهرة - ١٤٠٣هـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٤ - الخصائص لابن جني ت / محمد علی النجار - ط / ٣ سنة ١٤٠٣ - عالم الكتب - بيروت .

١٥ - دلائل الاعجاز لعبدالقاهر ت / محمود شاکر - مطبعة المدنی القاهرة - نشر الخانجي .

١٦ - رصف المباني في شرح فروق المعاني للمالقي ت / أحمد الخراط - ط / ١٤٠٥ دار القلم - دمشق .

١٧ - شرح الكوكب المنير لمحمد بن أحمد الفتوحی (ابن النجار) ت / محمد الزحيلي ، ونزيه حماد - ط / ١٤٤٠٨ - جامعة أم القرى -

١٨ - شرح اللمع لابی اسحاق الشيرازي ت / عبدالمجيد - ط / ١٤٠٨ - دار المغرب الاسلامی - بيروت .

١٩ - شرح مختصر ابن الحاجب للمضد وعليه حاشية السعد وحاشية السيد - ط / ١٤٠٣ - بيروت - مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٣٦هـ .

٢٠ - شرح المفصل لابن يعيش ط / مصورة - مكتبة المتنبي - القاهرة .
٢١ - شروح التلخيص في علوم البلاغة - ط بولاق سنة ١٣١٨ - القاهرة
٢٢ - فتح القدير (تفسير الشوكاني) محمد بن علی الشوكاني - ط / ١٤٠٣هـ دار الفكر بيروت .

٢٣ - الفتوحات الالهية على تفسير الجلالين لسليمان الجمل - ط / عيسى الحلبي - القاهرة .

٢٤ - الفوائد الغيائية لأحمد بن مصطفى طاشكبرى زاده - ط / تركيا سنة ١٣١٢هـ .

- ٢٥ - فوائح الرحموت على مسلم الثبوت لعبد العلى الانصارى - طبعة
(٢) مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٣٢٢هـ .
- ٢٦ - العدة فى اصول الفقه لابی يعلى الفراء البغدادى ت / احمد
المباركى ط / مؤسسة الرسالة - بيروت سنة ١٤٠٠هـ .
- ٢٧ - الكتاب لسيبويه - ت / هارون سنة ٤٠٣ - بيروت .
- ٢٨ - الكشف للزمخشري ومعه حاشية السيد وحاشية ابن المنير -
طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٩٢ - القاهرة .
- ٢٩ - كشف الاسرار عن اصول اليزدوى - لعلاءالدين عبدالعزيز
البخارى - طبعة باكستان - مصورة عن طبعة الشركة العثمانية .
- ٣٠ - المبسوط فى القراءات العشر لابن مهران - ت / سبيع الحاكمى
ط / جدة سنة ١٤٠٨هـ .
- ٣١ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الاندلسى
ت / المجلس العلى بفاس - المغرب ط / ١٣٩٥هـ .
- ٣٢ - المحصول للرازى ت / العلوانى - ط / ١٤٠١ - الرياض .
- ٣٣ - المستصفى للقرالى - ط / ١٤٠٣ - بيروت مصورة عن طبعة
بولاق سنة ١٣٢٢ .
- ٣٤ - المسودة لآل تيمية . تقديم محمد محيى الدين - ط / المدنى -
القاهرة .
- ٣٥ - المصباح لابن الناطم ت / حسنى عبدالجليل - ط / ١٤٠٩ -
مكتبة الاداب القاهرة .
- ٣٦ - المظول : شرح التلخيص فى علوم البلاغة لسعدالدين التفتازانى
- طبعة احمد كمال سنة ١٣٣٠ - تركيا .
- ٣٧ - معانى القرآن للفراء ت / محمد على النجار - ط / عالم الكتب
سنة ١٤٠٣ - بيروت .

١٤٨ -

- ٣٨ - المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري - ط / بيروت
سنة ١٤٠٣ هـ .
- ٣٩ - مغني المليب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام الانصارى ومعه
حاشية الأمير طبعة عيسى الحلبي بالقاهرة .
- ٤٠ - مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي - ط / سنة ١٣٥٦ - مصطفى
الحلبي القاهرة .
- ٤١ - الموافقات في أصول الفقه لأبي اسحاق الشاطبي ت / دراز -
ط / ١٣٩٥ - دار الفكر العربي - مصورة .
- ٤١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي - ط / دار المعارف
العثمانية / حيدرآباد - الهند .
- ٤٢ - معجم الهوامع للسيوطي - ط / دار المعرفة - بيروت (مصورة) .

فهرس الموضوعات

المقدمة ص ٣

• حقيقة المعنى ص (٥ - ١٥)

• حقيقة معنى الأمر عند العلماء - المذاهب ونقدما (٥ - ١٢)

• المختار من بيان حقيقة معنى الامر (١٣ - ١٤)

• حقيقة معنى النهى عند العلماء - المذاهب ونقدما (١٤ - ١٥)

• تحقيق المعنى المختار (١٥ - ١٦)

• صورة المعنى (١٦ - ١١٤)

• الضرب الأول : الصيغة (١٦ - ٧١)

• صيغة الأمر (١٦ - ٦١) الأولى : ليفعل (١٦ - ٣٢) الثانية :

أفعل (٣٢ - ٣٥) اسم الفعل (٣٥ - ٥٤) المصدر النائب عن فعل

الأمر (٥٤ - ٦١)

• صيغة النهى (٦١ - ٧٠) صورها (٦١ - ٦٨) الحالات فى دلالة

اسم الفعل على النهى وضعا (٦٩ - ٧٠)

• الضرب الثانى : الأسلوب (٧١ - ١١٤)

• أسلوب الخبر (٧١ - ٩٧)

• أسلوب الاستفهام (٩٨ - ١١٥)

• أسلوب العرض والتحضيض (١١٦ - ١٣٢)

• دلالة النهى على الأمر استلزاما (١٣٢ - ١٣٦)

• دلالة الأمر على النهى استلزاما (١٣٦ - ١٣٩)

• دلالة الاخبار عن الفعل أو صاحبه (١٤٠ - ١٤٣)

• الخاتمة (١٤٤)

• الفهارس (١٤٥)

استكشاف أهم الأخطاء

ص	ص	ص	ص	ص	ص
٥	٢	بكثير	٦٩	١١	خيرية لفظا ومعنى
١٢	٢٣	عليه	٧٢	١٣	ظاهر العبارة
١٣	١٧	ما أوحى	٧٦	١٦	صارفة
١٥	١٥	أن نهى عن فعل	٨٥	٣	معربا عن
١٦	٧	بينما	٨٥	٢٠	أثرت
١٦	٢٢	ثلاثة	٨٥	٢٣	يستجيّبوا لها
١٦	الأخير وهذه الثلاثة : خشية الله		٨٨	٦	الجائرة
	واققاء الاقتراب . . .		٩٠	١٧	التقوى
١٧	١	منه الثلاثة هي التي	٩٣	١٢	وما كان
١٧	٦	عائد الى	٩٥	٣	فيه بلاغ
١٨	١٢	الكريم	٩٥	١٩	ذاته
١٨	١٨	النام	٩٦	١	خاصة
٢٣	٣	أطوار	٩٩	٥	وعن الصلاة
٣٧	٣	فيه من الايجار	٩٩	٥	(المائة / ٩١ - ٩٢)
٣٩	١٨	فيخرجوه	١٠١	٧	لنا قضته
٤٨	١٦	وما حكى من نحو	١٠١	١٦	الامس
٥٢	٧٥	وذلك كقول	١٠١	١٢	(هو / ١٢ - ١٤)
٥٨	٢٣	مذلة الدين	١٠٤	١٤	رب العرش عما يصفون
٦٠	١٥	تصدقوا	١٠٦	٢٣	(٣٤ - ٤٠)
٦٠	٢٠	تعلمون	١٠٨	٢٣	(التوبة / ١٣)
٦٢	١٩	١٥٠ - ١٥٢ - ١٥٤	١١٤	١٩	عزم فعل
٦٢	٢٢	٢٣١ - ٢٣١ - ٢٣٢	١١٦	٩	يحنف ما يأتي (وهل
		٢٣٥ - ٢٣٥			فيبسا دالة على التمني
٦٥	٦	(آل عمران / ١٣٠)			و (لا)

ص	س	الصواب	ص	س	الصواب
٢	١٣٠	(ي ٤٦/)	١٤	١٢٣	(ي ١٣٤/)
١٥	١٣٠	(آنا لمبعوثون)	٢٠	١٢٣	املكناهم
٧	١٣٤	نفسه	١٦	١٢٣	يحنف (ي ٤٧/)
٨	١٤٤	ما كان اعظم ظهورا	٢٢	١٢٣	(ي ٢٨/)
١٨	١٤٥	التبيان	١٥	١٢٣	لقالوا ربنا
١٢	١٤٦	عبد المجيد تركي	٤	١٢٤	يحنف (ي ٨٣-٨٦)
١٢	١٤٩	الخلاف	٧	١٢٤	قص
			١٨	١٢٥	من قبلكم أو لو بنية

رقم الایبداع بدارا لکتاب ۱۹۹۳/۲۶۳۲